أفنان عمر

أكتب إليك

رواية

رواية

أُكتب إليك

أفنان عُمر

جميع الحقوق محفوظة © عصير الكتب للنشر الإلكتروني

http://book-juice.com

أكتب إليك

الكاتب : أفنان عُمر

نشر في : يوليو 2020

تصميم غلاف: داليا قريش

تصحيح:عبد الله أسامة

تنسيق داخلى : عصير الكتب للنشر الالكتروني

إهداء

إليها ....

أمي.

والعائلة.

أنت تدفع ثمن كل اللحظات التي تعيشها برغبتك الكاملة، تدفعها لدى من هم لا يتفهمون ذوي العقول الضغينة الغبية الأنانية. أما من يفهمون فدعونا نحبهم جدًا جدًا.

في مقعد وثير جلسَت في منتصف النهار، الجو شديد الحرارة. هي اليوم مرهقة، سهرها بالأمس أجج الكثير من الأفكار في رأسها، مضت معظم الأيام كمثيلاتها. اليوم سيأتي ليصطحب ابنهما لقضاء يومين معه كما اعتاد أو كما اتفقا. بالأمس فكرت كثيرًا أن تنهي تلك الرسالة التي قررت منذ فترة أن تسكب بها ما تحويه نفسها، رغم أنها تتحاشى حتى رؤيته ولو من وراء ستار، ولكن في قرارة نفسها تتمنى لو يلمح جزءًا مما تحويه نفسها...

اقترب الموعد، نهضت إلى غرفته، تأكدت أنه جاهز تمامًا، هندمته أكثر وهي تبتسم:

ـ هل اتفقتما أين ستمضيا اليومين؟

صمت قليلًا ثم أمسك الحقيبة:

ـ نعم، سنذهب إلى البيت اليوم وغدًا نقرر ما سنقوم به.

شردت، ذهبت بفكرها بعيدًا، كعادته يرتب كل شيء بعناية، ولا يعد كثيرًا، فقط يفاجئك بأشياء جميلة.

ابتسمت بسخرية محدثة نفسها .. "أيتها البلهاء ..كنتِ بالأمس تمقتين ذلك لماذا يعجبك اليوم؟! .. هذي الحياة لا تأمن لها أبدًا، ولكن يبقى الأمل بصورة ما..."

التفتت إليه وجدته سعيدًا مرحًا نشطًا فقالت مفتعلة الغضب:

ـ أراك سعيدًا في كل مرة تذهب معه، هل تكون كذلك عندما ترجع إليّ؟

جرى نحوها، أخذته بين ذراعيها:

ـ جدًا، إنني أفتقد حكاياتك لي قبل النوم .

مثلت الغضب أكثر:

ـ فقط؟!

هز رأسه نافيًا:

ـ لا، لا واللعب معك.

ـ فقط؟!

نظر إليها لبرهة وكأنه يفكر، فانفجرت هي ضحكًا وجذبته إليها فبادلها الضحك والقبل، صمتا على صوت جرس الباب، قفز من بين ذراعيها:

ـ إنه أبي...

جذب الشنطة وقبلها سريعًا وخرج من الغرفة.

أنصتت إلى جمل الترحيب من زوجة أخيها به، وصوت قبلات ابنها إليه:

ـ ها أنت ذا أيها البطل، هيا بنا.

ـ هيا...

بعض الهمهمات مع ابنه، ثم حيا زوجة أخيها التي حاولت معه أن يتناول أى مشروب فاعتذر أنه مرهق من العمل ولابد أن يذهب إلى البيت لم تلح عليه كثيرًا فهو في كل مرة يغادر بنفس السرعة. خرجت من غرفة ابنها وتلاقت عيناها مع عيني زوجة أخيها التي بادرتها:

ـ مازلتِ تتهربين حتى من رؤيته، إنه والد ابنك، على الأقل ينبغي أن تتشاورا في شئون ابنكما.

ابتسمت في وهن واستسلام داخلي:

ـ لو أراد النقاش لطلب، من الواضح أنه يتفاهم مع الولد جيدًا وهما الاثنان أذكى من بعضهما البعض.

أشاحت زوجة أخيها بيدها:

ـ مازلتِ عنيدة.

تركتها ودخلت المطبخ بينما ذهبت هي إلى غرفتها، تأملت حالها في المرآة، أضحت مهملة لنفسها، رغم احتفاظها بقدر من الجمال يؤهلها لمنافسة أية فتاة تجاوزتها هي سنًا. تنظر لنفسها ولا تنظر كأنما تنظر لماضٍ لا تشعر نحوه بأي روح، مع ذكرى تبتسم ومع أخرى وجوم ومع ثالثة لا تعبير، جلست في كرسيها المفضل تستكمل ما تخطه، قرأت آخر السطور، فجأة لم تستحسن الفكرة، لمَ تكتب ولماذا؟ هذا كله عبث، ومن أدراكِ أنه سيشعر بحرف أو كلمة حتى بما تشعرين به أنتِ؟ نظرت إلى سقف غرفتها مع شعور صامت، رفعت الورق ما بينها وبين السقف كأنها تستعين به على التفكير، وجدت البداية أمامها:

أيها القريب البعيد..

هل تتفضل يا سيدي أن تقرأ هذه السطور؟

لن تأخد من وقتك سوى القليل، لو شعرت بالملل وأنها بلا جدوى بعثرها إلى مكان لا تقع عليه عيناك أبدًا، سأخبرك من أنا وسأقص عليك من البداية، لعلك تكتشف أشياء قد غابت عنك ولم تدركها ربما، ولو أنني أدرك كم أنت ذكي فطن، كنت دائمًا ما تقدّر وأنا أنكر.

اعتدلت وشرعت في القراءة كأنها تستعيد روح ما قرأته...

كنت فتاة صغيرة، كنت أنا وأخي الذي يكبرني بأعوام قد ترعرعنا على الدلال الشديد من قِبل أبي، لا يُرفض لي طلب وكذا أخي، تبادلنا اللعب في حب ومرت فترات حياتنا كل يوم

نزداد قربًا، كذا فترة المراهقة التي فقدت فيها والدتي؛ فبدأ أبي يعوضني أكثر حتى لا أشعر بفقدان حنانها، آثر أن يعيش لنا فقط.

دخلت الجامعة، ورغم سلوكي المهذب دائمًا بسبب تربية والدي الحازمة، أظهر الدلال الشديد التمرد الكامن في طبعي، وإذا اجتمع التمرد مع الدلال تصير الفتاة عنيدة وترى كل تعامل معها وكأنه قهر!

كنت مع صديقاتي أنا المدللة بينهن، كنا شلة انضم إلينا بعض الأصدقاء الفتيان، كانوا جميعهم لا يلفت نظري أيًا منهم، كنا جميعًا نعيش حياة مرفهة، نسهر حتى منتصف الليل، لا يعلق أبي عليّ كثيرًا. كان يثق كثيرًا فيّ إلى جانب أنه يفهم شخصيتي جيدًا، كل عام ينضم إلى الشلة أشخاص جدد، كنا نضحك ونلهو، لا نهتم أبدًا بغيرنا أو من يعانون من حولنا، كل ما كان يهمنا هو اللهو والمرح والسهر والتنافس بيننا نحن الفتيات على المظهر والملبس والتسوق والسيارات الجديدة إلخ .. في السنة الثالثة انضم إلى الشلة شخص جديد لفت نظري، كان أحد الاصدقاء قد خطط لضمه إلينا لأنه في السنة الرابعة وربما نستفيد من خبراته، ولكنه في الأساس كان صديقه المقرب بطريقة ما. فهمت بعدها بفترة لماذا ـ وسوف تفهم من بين سطوري القادمة السبب ـ لفت نظري بعض الشيء. ربما لأنه كان لا يتحدث في الأمر سوى القليل، أو يتحدث فقط عندما يجد الكلام المناسب، كان منمقًا في كل شيء، يبدو على مظهره الكامل ذلك، تبادلنا الاهتمام ومع الوقت صار اليوم بدونه بلا هوية وبلا مرح. جميع من بالشلة لاحظ ذلك، بدأنا نتقرب أكثر حتى أصبحنا ثنائيًا معروفًا.

مع اقتراب نهاية السنة الدراسية توفي والدي، أصبت خلالها بصدمة عصبية وصحية، تخيل أن تفقد حنان العالم في شخص، وتشعر أن كل العالم يتحرك وأنت ثابت كما أنت. في تلك الفترة تحولت حياتي إلى ركود وإحباط وحزن، استطعت تجاوز العام الدراسي بصعوبة، وكان هو من حرك ركود الحياة. لم يستطع أحد انتزاع الابتسامة من شفتيّ سوى هو. في تلك

الفترة، حاول بكل الطرق أن يخرجني من تلك الدوامة الحزينة، كان يشجعني كثيرا ويذكرني أن الحياة بها لهو كثير ينتظرنا، فلنترك الحزن بعيدًا. خلال تلك الفترة اقتربنا من بعضنا أكثر فأكثر. صرت لا أرى حياتي بدونه، أصبحت أحبه بجنون، وأراه أيضًا يبادلني كل شيء. كنا نلتقي مع الشلة يوميًا، أصبح رفيقي أينما ذهبت، كان يعوضني الكثير من الحنان، وكنت أحتاج إلى احتواء يشمل كل ما بي من أفكار وآلام، احتواء يشمل عقلي وقلبي وعينيّ.

ورغم انشغال أخي بزواجه، كان يراعيني أيضًا بقدر الإمكان، ولكن لم يستطع تقبل أنني ما زلت أقضي كل وقتي تقريبًا مع الشلة، وأسهر حتى قرب منتصف الليل. وهو الأمر الذي تحدد فيما بعد، بعد مناقشة حادة بيني وبينه في إحدى الأمسيات. كنت استعد للخروج فاستوقفني بهدوء:

ـ هل ستخرجين؟

لم أنظر إليه، جاوبته بآلية:

ـ نعم، بعد قليل سيأتون ليقلوني كالعادة..

ـ أرجو ألا تتأخري مثل كل يوم.

نظرت إليه بحدة:

ـ إنني أفعل ذلك دائمًا منذ زمن!

قاطعني وحاول أن يكون هادئًا:

ـ إنني أخشى عليكِ من كل شيء وأنتِ تعرفين ذلك، لم يعد هناك أمان، وأنتِ عرضة لأن يحدث لكِ أى شيء..

أجبته بحدة أكثر:

ـ لا أخرج وحيدة وأنت تعرف أنهم يقلونني كل يوم، ولا تقلق، أظنهم يوفرون حماية جيدة لي.

رد ولازال محاولًا الاحتفاظ بهدوءه:

ـ لابد أن أقلق، أنتِ أختي، ولا أريد أن أصاب فيكِ بأي أذى.

شعرت بضيق من طول المناقشة فقلت:

ـ لم يكن أبي يعاملني هكذا! كان يثق بي كل الثقة وكنت أخرج وقتما أريد، لمَ كل تلك السيطرة التي تريدها؟

ـ لأنني مسئول عنكِ الآن، وأنا لست أحاسبك أنا أخشى عليك من...

قاطعته بحدة:

ـ لا تقلق من أي شيء، ربما يأتي من يريحك مني قريبًا!

قال بعصبية زائدة:

ـ لم أقصد ما ترمين إليه...

تأوه ضائقًا:

ـ لنتفق على شيء، لا تتأخري عن العاشرة.

نظرت إليه بحدة ثم انخرطت في البكاء:

ـ ليت أبي كان هنا .. كان لا يسعى إلى السيطرة مثلما تسعى.

قال بجدية تامة:

ـ مهما تقولين أو تبكين، موعدك هنا العاشرة وهذا قراري.

ـ وإن رفضت؟

ـ لن تخرجي بتاتًا...

ـ إذن سأحبس نفسي هنا ولن أذهب إلى أى مكان.

تركني وانصرف، ظللت هكذا ما يقارب الأسبوع وكنت على وشك الانهيار؛ فأنا لم أعتد على عدم الخروج هكذا. كنت أبكي وحيدة في غرفتى، أيضًا كنت أفتقده بشدة. حاولت زوجة أخي أن تأخذني معها للتسوق كثيرًا ولكن كنت أرفض عسى أن يتراجع أخي، ولكنه لم يفعل. أخيرًا .. استسلمت لشرطه بعدما تركني هكذا ولم يتناقش أو يتراجع.

عدت للخروج مرة أخرى وقصصت عليه كل شيء وما فعله أخي، طيب خاطري وقال إن أخي يخاف عليّ، كلماته أثلجت البركان داخل صدري، وأقنعني أنه لابد وأن أمتثل لرغبة أخي. كنت بالفعل ألتزم الرجوع في العاشرة ولكن كنت أخرج في وقت مبكر حتى أقضي بعض الوقت معه. كنت في بعض الأحيان أنتظر أن يتحدث مرة عن ارتباطنا ولكنى كنت أبرر ذلك بداخلي أنه ربما لأنه لم يجد عملًا بعد، وذات مرة بادرته بالسؤال:

ـ لِمَ لَمْ تعمل حتى الآن؟

نظر إليّ بهدوئه المعتاد كأنه يفكر ولا يفكر:

ـ حقيقة لم أجد عملًا يليق بي، كل الأعمال التي تعرض عليّ لمن هم أقل مني مستوى، أريد عملًا يجعلني أكبر ولا يقلل من شخصي.

قلت له سعيدة ظنًا مني أنه يريد أن يجعل لنفسه مكانة عامة:

ـ هذا جميل أن تفكر دائمًا في الأفضل ولكن .. ربما لو أسرعت في إيجاد عمل جعلك ذلك تكون أسرة سريعًا...

ينظر إليّ بعينيه الثاقبتين وكأنه يفهم فحوى ما أرمي إليه فيضحك قائلًا:

ـ هل تريدين أن تتخلصي مني وأعود لأنام مبكرًا ولا تريني إلا الوقت القليل؟ دعيني أستمتع بالحياة وبوقتي معك.

كنت أضحك وأرضى وأرضخ؛ لأنني كنت أحب القرب منه، وهذا هو الأهم، ولكن مع الوقت وعندما أصبحت في السنة الأخيرة من الدراسة بدأت بالفعل عروض الزواج تهل إلى بيتنا، وكنت مع كل عرض أرفض لسبب ما رغم أنهم تقريبًا جميعًا لا يعيبهم شيء.

كان أخي يناقشني فأرد بأنني لا أتعجل الأمر، دعني حتى أنتهي من دراستي، كان لا يلح حتى لا أظن أنه يريد التخلص مني. اقتربت نهاية العام وكان كل ما أخشاه أن يأتي من هو مناسب ويصر أخي وأفقد من أهواه، إلى أن ناقشته مرة:

ـ لقد أوشك العام أن ينتهي.

ابتسم قائلًا:

ـ نعم، وسوف تتخلصين من عبء الدراسة ونجد وقتًا أكثر معًا.

رددت وأنا أنظر أرضًا في عبوس:

ـ أخشى أن لا...

وقف مواجهًا لي:

ـ ولمَ لا؟ لن يأخذ أخوكِ قرارًا بحبسك مثلًا أو يفرض حظر تجول عليك.

ابتسمت. كان دائمًا عندما يرى عبوسي يسعى لإضحاكي وكان يفعل بسهولة:

ـ قلت لك من قبل على عروض الزواج، وأنني أرفض بحجة انتهاء الدراسة، وها قد أوشكت.

ـ لا تقلقي. استمري في الرفض. لن يغصب عليكِ أبدًا أن تتزوجى شخصًا لا تريدينه.

أدهشتني إجابته:

ـ وأنت، ألن تأخذ أية خطوة؟!

نظر إليّ في حيرة وكأنه يفكر في رد:

ـ كيف أتقدم إليك ولم أعمل بعد؟ سوف يرفضني أخوكِ بالتأكيد.

قلت بتردد يجرح كبريائي متهمة إياه بالسلبية:

ـ لم تبادر أبدًا حتى ولو لمرة وتحدثني في ارتباطنا .. هل لديك نية من الأصل أم لا؟

قلت جملتي الأخيرة بحدة ولم أكمل حديثي .. تركته ورحلت، حاول أن يستوقفني رفضت. ظللت فترة أتجنبه، شعرت أنه لا يهتم من الأصل بكوني أرتبط بغيره أم لا. كرست اهتمامي للمذاكرة وكانت فترة الامتحانات قد أوشكت، فكنت أستعد بجدية لها.

من داخلي كنت أحترق. أنتظر أن يدق جرس الباب وأجده قد أتى ليفاتح أخي في ارتباطنا حتى ولو من باب أن نيته ألا يتخلى عني. انتهت فترة الامتحانات بسلام، عدت أكثر إلى الشلة بعدما ابتعدت عنها فترة من أجله وكان يأتي فأتجنبه،كنت غاضبة جدًا منه ولكن ما أراحني بعض الشيء أنني عرفت منهم أنه يبحث عن عمل.

وجدته يومًا يطلب مني الحديث منفردًا، كاد قلبي يطير من السعادة عندما أخبرني أن أحدد له يومًا لمقابلة أخي، كدت أطير من السعادة، لم أكن أصدق، وبالفعل تم تحديد موعد وأتي

وحيدًا دون أسرته التي لم يكن يتحدث عنها كثيرًا أمامي. لم أهتم. كان كل ما يهمني "هو"، وأتى المساء، كنت في الغرفة وطلبت مني زوجة أخي أن آتي إلى الخارج:

ـ أرى البهجة على وجهك لعل الله يقدر الخير.

ابتسمت وسألتها:

ـ ماذا ترين في وجه أخي، هل يراه مناسبًا؟

ـ مازالا يتحدثان. لم تظهر بوادر بعد، هيا حتى تقدمي شيئًا لهما.

ـ ادعي معي أن يوافق أخي.

ضحكت زوجة أخي بشدة وقالت:

ـ أتمنى لكِ السعادة دائمًا. عسى الله أن يجعله من نصيبك ما دمتِ تريدين.

ـ يا رب.

قلتها وأنا أرفع يدي إلى السماء وخرجت خلفها، قدمت المشروبات، وجدتهما صامتين، سلمت على الضيف وخرجت. مرت فترة وهما بالداخل ووجدته يغادر بعد برهة وأخي يودعه بكلمات ودودة لم أتبين منها أي شيء، مر بعض الوقت، وجدته يطرق غرفتي، دخل وجلس، كان يدرك جيدًا أنني أريد ذلك الشخص، يبدو أن زوجته باحت له بما أكنه له، صمت دقيقة ثم قال وأنا أترقب:

ـ ما رأيكِ؟

ـ ما رأيك أنت؟

صمت وكأنه يحاول طمأنتي وأيضًا يفضي بما في جعبته:

ـ إنه لا يعمل وهذه مشكلة كبيرة، ولكنه وعدني أن يجد عملًا خلال أيام وإلا لن أوافق عليه. هذا هو شرطي.

ساد صمت حاولت فيه أن أكون متوازنة بعض الشيء، أوضح لي أنه لابد أن يبحث عن راحتي قبل أي شيء، وأن العواطف والمشاعر ليست هي ما تبني البيوت، ولكن معها لابد وأن تتواجد أشياء أخرى. شعرت أن لحظات فرحي لا تتعدى دقائق، حتى تأتي دقائق تليها مفعمة بنيران تحرق كل الآمال.

في اليوم التالي تقابلنا، أخبرته بما قاله أخي، نظرت إليه عسى أن أرى في وجهه أى تعبير فلم أر، أشحت بوجهي بعيدًا، أكاد أجن من صمته، فجأة وجدته يضع شيئًا أمام عيني:

ـ أترين؟ لقد أخذت هذه العلبة معي وطلبت منه أن أهديك إياها كشبكة مؤقتة، فرفض متعللًا بالوظيفة! أية وظيفة تلك التي تحطم قلبين؟

كانت العلبة تحوى خاتمين، نظرت إليه، وجدته متأثرًا بشدة وقال جملته الأخيرة في عصبية زائدة مكملًا:

ـ لست أرى حياتي بدونك ليتهم يدركون ما معنى أن تتحطم القلوب...

صمت برهة وانفجرت في البكاء. شعرت أن الدنيا تدور بي. حاول تهدئتي بينما أنا التي كنت أريد أن افعل، أخبرته أن إيجاد وظيفة ليس صعبًا حتى ولو مؤقتة؛ لأن أخي يصر على ذلك الشرط، حثثته على أن يفعل ذلك سريعًا وأنا أكاد أتوسل؛ لأنني لم أعد أحتمل كل تلك الضغوط التي تحيط بي، هدأ من ثورة بكائي، ووعدني أنه سيبذل كل جهده ليجد تلك الوظيفة حتى يفوز بي كزوجة، وأنه يحلم بذلك اليوم بشدة. كان مقنعا جدًا في حديثه، من السهل أن يرضيني ومن السهل أن يحتويني أيضًا.

مر الأسبوع وأنا كل يوم أزداد توترًا وعصبية، وما حيرني في تلك الفترة أنه لم يجد عملًا، مازال متعللًا بأن أى عمل لا يليق به، وطالما أنا أرفض أى متقدم آخر سيكون هذا ضغطًا على أخي حتى يقبله. اتفقنا على ذلك كحل مؤقت، مر شهر على ذلك، وبدأ أخي يكل ويمل من ردودي على أى متقدم. وبدأ يشك أنني أفعل ذلك من أجله هو، فحثثته على التقدم مرة أخرى وسوف أقول لأخي أنني موافقة بأي حال عليك، ولكنه تعلل أنه لا يريد أن يسمع كلمة من أخي تجرح كبرياءه كرجل، ومع الوقت بدأ اليأس يدب إلى قلبي، وكنت على وشك الانفجار من كل من وما حولي .

وتقدمت أنت .. رأيتك في ذلك اليوم، رجل قارب على الثلاثين، بدا عليك الاتزان، تقليدي، زوج مناسب من كل النواحي. كنت تعرف أخي والأسرة عن طريق صديق له في العمل، لم أتقبلك أبدًا، كنت أراك مملًا عاديًا ومستسلمًا، لست منتميًا للحياة الحديثة! اعذرني أن أقول ذلك ولكن دعني أكمل حتى النهاية.

أية هوادة تلك التي جعلتني فجأة أوافق عليك، كنت قد يئست منه بعد كثرة إلحاحي أن يتقدم مرة أخرى. شعرت أن كرامتي انهارت، شعرت أنني ربما عندما أوافق عليك أكون قد انتصرت، أن أجعله يعاني، ولكن هيهات أن يتحرك قيد أنملة. كانت زوجة أخي تصفك كرجل "جنتلمان" حقيقي وأنني لابد وأن أنظر لهذا الجانب حتى أراك جيدًا. كانت تخبرني ذلك لأنني لا أتقبلك، أرى فيك كل عيوب الرجال، أتبرم من تقوقعك في زمن قديم، من عدم انطلاقك كمن هم في مثل سني. كانت تخبرني أنني قادرة على تغييرك، كنت محبطة ويائسة وأشعر أنني أتعس من خلق الله في الكون، ولكن كنت قد يئست من كل شيء وأردت أن أغير حياتي ولو بك.

تمت الخطبة وكنت أثناء تلك الفترة تفعل كل ما أريده. تسعى لإرضائي دون مبالغة. كنت بالغ السخاء كريمًا لا يشينك إلا ما أراه أنا شائنًا بك، ولكن مع الوقت ظهر تمردي ودلالي،

كنت أفتعل الكثير من الخلافات ولكن كنت تحتوي كل ذلك دون أن تخبر أحدًا، كنت تنصحني دائمًا "لا أريد أن يتدخل أحد فيما بيننا" ولكن أمام أخي كنت كأني أخلق عيوبًا في شمعة يظنها الجميع نورًا وأنا فقط أشعر بلهيبها. افتعلت الكثير من المبررات حتى أراك معيبًا، ذات مرة قلت لأخي أنك أسأت لي لأنك طالبتني أن أذهب معك لرؤية الشقة، قلت لأخى ما رأيك أتظن أن نواياه حسنة ذلك الذي لا ترون به أى عيب؟ اكتشفت أنك أخبرت أخي ونسي أخي أن يخبرني، ضحكت في نفسي من سخرية نفسي مني، حاولت أكثر من مرة أن أعرقل تلك الزيجة، لكن كان أخي يصدني بأنك أفضل من تقدم، وأنني لابد وأن أحمد الله عليك، ميسور الحال ولا ترفض لي طلبًا، تتمنى رضاي بأية وسيلة. باءت كل محاولاتي أن أتخلص منك بالفشل المحتوم.

كان كلما اقترب العرس كلما ازددت اختناقًا وضيقًا. دعوت الله كثيرًا لكن أعترف أن بداخلي راحة لأنه لم يستجب لي. أحيانًا نتمنى أشياء بلهفة وندعو الله برجاء وبكاء، ونتعجب لمً لم يتحقق الرجاء، ثم نكتشف مع مرور الأيام أنه لحكمة لا يعلمها سوى هو، ولا ندركها نحن إلا حين نرى نتاج دعائنا لاحقًا، إنه الصبر بصورة ما.

كنت سريعًا في تحضير كل ما يخص العرس بلهفة وسرعة، خلال أربعة أشهر كان العرس. كنت كأنك أسعد شخص في الوجود! والغريب أنني كنت أرى السعادة في عينيك أكثر مما تظهرها أنت، بينما كنت أنا فاقدة طعم الحياة رغم مواساة زوجة أخي الدائمة، التي جعلتني أتقبل كل ذلك لأنها حياتي القادمة، وإلا سوف أعيش في جحيم لم يخلقه سواي. جلست معي للنصيحة كثيرًا ولكني كنت عنيدة، كنت أتمنى كأية فتاة أن تتزوج من يختاره قلبها ويتمناه عقلها بدوره، ولكن شاءت الأقدار أن يمر كل شيء أمام عيني وأنا مستسلمة، رغم أنني غالبًا متمردة.

لِم كنت طيبًا هكذا معي؟ رغم جفائي وتعاملي ببرود معك،كنت حنونًا، دائمًا ما تلتمس لي العذر بل تخلق لي الأعذار! مرت الأيام الأولى وأنا تائهة، كنت أقنع ذاتي أنني لابد وأن أحيا هذه الحياة لا مفر، وما ساعدني أكثر معاملتك الطيبة الحنونة الرقيقة. بدأت أبتسم وأبادلك الكلام مع الوقت، بدأت أتعايش، أنسق البيت كما أريد وأنقل الأشياء وأنت في قمة سعادتك وأنت تراني هكذا، تساعدني وتنقل معي.

كنت تقيس كل شيء بحكمة وصبر، بدأت أتقبلك أكثر كزوج، كشريك في المنزل يبادلني الحنان وأبادله الاحترام. مرت شهورنا الأولى في تواصل مني بحذر ومنك بود أكثر، كان الحذر دائمًا يشوب أيامي معك. كنت أحيانًا أشعر أنها أيام لا أعرف نهايتها، أشعر بريبة إن شعرت يومًا بالسعادة، أشعر أنها مؤقتة. لم أستطع أن أتقبل حياتي كليًا معك. تتذكر جيدًا كيف مرت الشهور الأولى. كنت مطيعة لا تنكر، كنت هادئة وخائفة، كنت وقتها لم أفهمك جيدًا بعد، أحاول أن أكون سيدة منزل بحق، كنت ماهرة في ذلك لا أعرف كيف ولكني كنت أجيد ذلك.

كان هناك عيب كبير بي وهو أن ما يفسد مني أرميه سريعًا حتى لا يكتشف أحد خيبتي في شيء ما، وكثير من الأشياء كانت تفسد، ولكن مع الوقت تعلمت، أعرف أن كلامي متناقض فلا تسخر مني، أعرف أيضًا أنك ستضحك كثيرًا عندما تقرأ هذا الجزء.

هناك أشياء في حياتك لا تعرف متى وكيف ستنتهي. هذه الأشياء التي حاولت أن أرسخها بداخلي لك لم تكد تبدأ حتى انتهت سريعًا لأعود لمشاعر الحنق مرة أخرى. ظهر التمرد من جديد، بدأت أمل كل شيء حتى أنت، عدت إلى عدم مبالاتي لك كأيام الخطبة بل على نطاق أوسع، بدأت أنفر من تعاملك معي وحتى عندما تأتي من العمل كنت أستقبلك بعبوس وأرد باقتضاب، أتذكر تلك المرة التي آذيتك فيها بشدة، كنا على مائدة الطعام:

ـ عزيزتي لمَ لا تأكلين؟

ـ .....

تركت مقعدك وجئت بجانبي، حاولت أن تمسك يدي فجذبتها بعيدًا بنفور:

ـ ماذا بكِ؟ هل هناك ما يضايقك مني؟

كان هناك صمت يطبق على أنفاسي، لم أرد عليك فقلت بحنان أكثر مقتربًا:

ـ هل حدث شيء ما؟

أجبت بقتضاب:

ـ لا.

ابتسمت واقتربت أكثر لتحتويني بين ذراعيك فأبعدتك بنفور وقمت مبتعدة. جلست على الأريكة فجئت بجواري:

ـ ماذا يعكر مزاجك اليوم؟

ابتسمت بسخرية وغضب وتمتمت:

ـ اليوم فقط!

ولكنك سمعتني:

ـ لا، لقد لاحظت منذ عدة أيام، وقد فسرت ذلك أنه يرجع أنك طوال اليوم وحدك تقومين بالكثير من الأشياء، أعذرك على عبوسك الدائم وأتوجع لذلك.

وفكرت قليلًا ثم نظرت إليّ:

ـ ما رأيك أن نسافر عدة أيام إلى مكان تحبينه؟

لم أحفل بكلامك، حقيقة كنت نافرة منك عازفة عن سماعك، أجبتك على مضض:

ـ لا أريد الذهاب إلى أي مكان.

ـ سوف نكون سويًا وحيدين بعيدًا عن كل ذلك العالم والصخب، ستسعدين لذلك جدًا.

كنت صامتة فأكملت بحنان أكثر:

ـ أعرف أنني أتعبك كثيرًا في أمور البيت، ربما نقوم بعمل جدول لآخذ جزءًا منه لنفسي بعد عودتي من العمل؟

لا أعرف، خجلت من كلامك كثيرًا. لم أستطع قول أي شيء فتصنعت ابتسامة وقمنا إلى الأكل لنكمل، ولكن مع حالتي التي كانت تزداد حنقًا ربما فعلًا من جلستي وحيدة في المنزل، لم يمر وقت قصير حتى تكرر نفس الموقف، وكنت أكثر حدة وعصبية في ردودي وكنت أنت حنونًا أكثر ولكن كان حنانك يستفزني حتى إنني قلت بعصبية:

ـ هل تعرف شيئًا؟ أكره حنانك هذا، كيف تعاملني هكذا وأنا أعاملك بنفور دائم؟!

ـ لأنني أطبق قول الرسول عليه السلام "رفقًا بالقوارير" وأنت أنعم وأرق من القارورة فلا بد أن أحنو عليكِ أكثر.

نظرت إليك بعبوس:

ـ ألم تفكر مثلًا أنني لا أطيقك لا أحبك، أنني أراك باردًا وأنني أعاملك هكذا وأنت تعاملني بحنان زائد.

قلت مبتسمًا:

ـ أعرف أنك أبدًا لا تقصدين ذلك وأنك طيبة وحنونة، فقط هي الوحدة ومشاغلك المنزلية.

صرخت:

ـ كفى كفى! كف عن ذلك. لقد سئمت كل ذلك وسئمت تلك الحياة.

انتهى نقاشنا. وفي الأيام التالية كنت أكثر هدوءًا معي، تحاول أن تتجنب ثوراتي، إلى أن طلبت منك أن أذهب إلى أخي وتمنيته ذهابًا بلا عودة، وذهبنا فعلًا وجلست مع زوجة أخي التي لاحظت عبوسي فقصصت عليها كل حياتي. كانت تضحك:

ـ ماذا يضحكك؟!

ـ كل تلك الحنية وأنت... هذا تبطر!

قلت مختنقة:

ـ تبطر! لست أتقبله لم لا تفهميني؟ لا أحد يفهمني!

ـ أشعر أنك أنتِ نفسك لا تفهمين ماذا تريدين..

أطرقت برهة لكلامها:

ـ ربما .. ربما هو جيد ولا يستحقني فأنا سيئة.

ضحكت أكثر:

ـ أنتِ تختلقين أسبابًا حتى تقنعي نفسك أنكما غير متناسبين، عزيزتي عيشي حياتك في سلام.

نعم، السلام .. أين هو؟ لماذا لا يأتي؟ أنا أحاول حقيقة، أحاول أو أدركت أنه لا مفر من العيش دونه والسلام، حاولت بالفعل أن أتعايش، أن أكون هادئة. حاولت أن أتقبل أكثر وما زاد تقبلي اكتشافي بعد عدة أسابيع أنني أنتظر مولودًا منك. كنتَ في قمة سعادتك

وكنت أنا أحاول بالفعل أن أسعد نفسي. بدأت بالفعل أشغل نفسي في التحضير لذلك من لوازم وأشياء. وكل ما كان يهمك هو أن تراني سعيدة.

وجاء إلى الدنيا ولدنا العزيز الذي يحمل طيبتك مع قليل من تمردي، تعلقت به أشد التعلق. أصبحت كل حياتي فيه. لم أنتبه أصلًا إنْ كنت أهملك أم لا، ولكن ما أتذكره أنك كنت تقوم بما أنا مقصرة به. حتى اقترحت أن تأتي بإحدى الفتيات لتنظيف الشقة مرتين في الأسبوع. وافقتك. كان جل اهتمامي في تلك العطية الجميلة في يدي، كنت أنت أيضًا في قمة سعادتك ليس كأب فقط، بل لأنك كنت تراني سعيدة. كنت ألاحظ مراقبتك لسعادتي وضحكي ولهوى مع طفلنا، يا إلهي! إنني أرثي لحالي. كنت فعلًا متمردة وقاسية وعنيدة. أفكر كيف تراني الآن وأنت تتذكر كل ذلك؟ .. كنت أنانية وغير جديرة بك.

انهمرت الدموع من عينيها. تركت الورق جانبًا، أغمضت عينيها لبعض الوقت، راحت في سبات لفترة قصيرة، ثم استيقظت على صوت هاتفها. تفقدته فوجدته هو، اعتدلت في جلستها بقلق، جاءها هاجس أنه حدث شيء ما. أجابت فوجدت على الجانب الآخر صوت ابنها الرقيق:

ـ ماما... بفرحة:

ـ نعم يا صغيري...

ـ هل من الممكن أن يجلب لي أبي دراجة؟ أعدك لن أحدث بها جلبة في البيت.

ابتسمت وأجابته ببطء:

ـ مممم

ـ ماما ماذا قلتِ؟

ابتسمت أكثر بل إنها كتمت ضحكة:

ـ حبيبي لا أعرف ربما لابد أن ناخذ رأي خالك أولًا.

ـ لقد وافق خالي من قبل وأنتِ من رفض.

هي تعرف ذلك جيدًا:

ـ مممممممم ربما، لا أعرف.

ثم وهي تكاد تطلق ضحكة بل وأخيرًا أطلقتها:

ـ نعم، تستطيع.

سمعت صيحة عالية كادت أن تصم أذنها، صيحة سعادة وانتصار فأبعدت الهاتف عن أذنها وأعادتها مرة أخرى:

ـ أبي قال لي أنك لن تعارضي لأنني الأقرب إلى قلبك.

وصاح مرة أخرى قائلًا:

ـ إنني أحبك جدًا.

وبعد أن هدأ قبلها عدة قبلات.

ظلت مبتسمة في شرود لوقتٍ طويل بعد انتهاء المكالمة. تذكرت أيام طفولته الأولى. ظلت تتذكرهما ولكن مهلًا .. يبدو أنها خشيت أن تضيع الكلمات فأمسكت بقلمها والورقة وسطرت:

مرت شهور وأنا لا أهتم بأي شيء في منزلنا سوى طفلنا الغالي، كنت ألازم غرفته لا أخرج منها سوى للأهمية، كنت أنت أحيانًا تلازمني وتساعد لا أنكر، كنت فرحة أشد الفرح بتلك

العطية التي ملأت حياتي وغمرتها نشوة البراءة، بل كنت أحيانًا أشاركك الكلام الكثير والضحك وأحيانًا الدندنة. كنت سعيدًا ولكن أبدًا لم تشك من إهمالي لأي من واجباتك، لم تتبرم لأني لم أعد أهتم بك، بل كنت سعيدًا لأنك تحدني كذلك. نعم، أقر وأعترف أنني كنت زوجة مهملة. في كل واجباتي: الاهتمام، الرعاية، القرب والمشاركة. لكن هل أنت تبرمت، سألتني أن أهتم؟ شكوت كل ذلك لأحد؟ لا، كنت بالعكس تقول لي أحيانًا إن وجدتني أقوم بعمل شيء: "أنتِ متعبة وهذا الشقي الصغير متعب، أرجوكِ اذهبي للراحة"

وماذا أيضًا؟ الكثير .. كبر الشقي الصغير وأصبح متعبًا أكثر ومرهقًا، وأصبحت أنا أتبرم أو كعادتي عندما أحب شيئًا جدًا أعطيه كل اهتمامي ووقتي ومجهودي وحبي وأستهلك كل مشاعري فيه، وهيهات أن أستعيد نشاطي لاستعادة نفسي ومشاعري مرة أخرى نحوه. بالعكس، مع الوقت عدت لتمردي وسأمي وملليّ. فماذا حدث؟ تحولت من كائن بريء كطفلي إلى كائن عصبي، أقل كلمة تحولني إلى ثورة من ردود الفعل غير المتوقعة من أي أحد.

عدت إلى حالات صمتي، ولكن هذه المرة كانت حالتي أشد وطأة من أي وقت مضى. كنت أسترجع نفسي كل فترة، يومًا أو اثنين ثم أعود إلى صمت قاتل حتى مع نفسي. كنت أنت كعادتك تقابل تلك النوبات بحنان أكثر. لا زلت تطلق عليّ قارورة ثمنية لا تريدها أن تنكسر، أو حتى تُخدش. تدللني بالعطايا حتى تعوضني تعبي مع الابن الشقي، تحاول أن تخفف من ذلك وتأول كل تغيرات مزاجي أنه إجهادي مع الطفل وإرهاقي المتواصل منه. كنت أجد تبريراتك مملة وتفسيراتك لا آبه لها ألبتة، كنت عابسة، لا أستجيب لأي حديث معك، كنت أشعر بالاختناق عندما تحدثني، وعندما أكون وحدي أختنق بالبكاء أكثر. أصبحت لا أعرف ماذا أريد، ولكن كل ما كنت أتمناه أن أبتعد عنك وعن كل العالم. فرحتي بوليدنا لم تشبع كل ما أريده بداخلي. من الممكن أن تظنني مجنونة مثلًا، أو أتبطر على

حياتي المستقرة، ولكني كنت لا أطيق كل هذا وصرحت لك بذلك ذات مرة. أتذكر ذلك اليوم، كنت عائدًا من العمل وكنت أنا أجلس على الأريكة. ألقيت التحية ورددت باقتضاب فاقتربت قائلًا وأنت تقبل رأسي مبتسمًا:

ـ لقد جلبت لكِ خبرًا جميلًا.

لم ألتفت إليك فواصلت:

ـ سوف نسافر بعد يومين لقضاء عدة أيام في المكان الذي تختارينه.

ظللت صامتة فواصلت أيضًا:

ـ أخبريني إلى أين تريدين الذهاب؟

لم أرد فقلت في حيرة:

ـ لمَ تصمتين؟ أرجوكِ تحدثي إليّ، شاركيني، في النهاية أريدك سعيدة.

حاولت أن أتحدث فقلت:

ـ أي مكان تختاره ولكن ألا ترى أنه من الصعب أن يسافر ولدنا؟

ابتسمت قائلًا:

ـ لا تقلقي، السيارة بها وسائل راحة لنا جميعًا، وأيضا إن أتعبك هناك سوف أتولاه. أنا أريدك في النهاية أن تسعدي.

كررتها مرة أخرى، تريد إسعادي؛ فقلت باقتضاب:

ـ كما تريد.

ـ إذًا إلى أين سنذهب؟

ـ اختر أنت ولا تقلق، سوف أرضى بأي شيء.

سمعنا صراخ وبكاء الطفل فأسرعت إليه وأنت خلفي، حملته وجئت بجواري، ودندت له ببعض الكلمات فقلت لي بمزاح:

ـ أرى بهجة في وجهك وأنت بقربه أتمناها يومًا لي.

التفت إليك وقلت:

ـ أتراني مقصرة في حقك؟

ـ لا، لم أقل ولم أقصد ذلك.

ـ قل أنك بدأت تمل مني.

ـ لم أقل ذلك أيضًا.

لا أعرف ما الذي أثارني أو أنني وجدتها فرصة لأقول لك بصوت عالٍ:

ـ أتعرف شيئًا؟ أنا أيضًا مللت هذه الحياة، ومللتك، ومللت كل شيء.

قلت لي بهدوء:

ـ لا تصرخي بجوار الطفل.

ـ لا تحدثني هكذا، ربما تتهمني أنني لا أعرف كيف أربيه أو أهتم به.

لم ترد عليّ فواصلت وأنا أضع الطفل في مهده:

ـ لا أريد أن أسافر إلى أى مكان، وإن سافرت لا أريد أن اكون معك.

فقلت بهدوء وأنت تمسك يدي وتشد عليها:

ـ لا تتحدثي معي هكذا فأنا زوجك ولم أسيء إليكِ.

ـ اترك يدي.

وبدأت أشد على يديك وأضرب على صدرك وأتهمك بالعنف وأنني لا أتحملك، وأنك بارد وتدرك أنني لا أطيقك ولا زلت محتفظًا بي إلى جوارك. لم ترد، تركت يدي وتركتني إلى غرفتنا. لم تخرج منها إلا في اليوم التالي. لم نتحدث لأيام ولم نسافر إلى أى مكان. لم أحاول أن أحدثك ولم تحاول أنت أيضًا.

ظل الصمت بيننا عدة أيام إلى أن جئت إليّ معتذرًا ومؤكدًا أن ما حدث في ذلك اليوم كان بسبب ضغوط العمل. وببعض كلماتك الحانية التي تواسيني دائمًا تقبلت الأمر، بل الحقيقة تقبلنا الأمر على ما هو عليه ولكن الفتور ازداد بيننا. أصبحت أنا أكثر صمتًا وأنت أكثر حذرًا معي، أتعرف في تلك الفترة ماذا كنت أفعل، كيف كانت حالتي؟ لا تعرف، سأقول لك، أصبحت لا أجد متنفسًا حولي سوى البكاء، وأنا وحدي أشعر بالاختناق. كنت أقضي معظم الوقت باكية على حالي وعلى حياتي إلى أن يصيبني الإعياء فأغرق في نوم طويل.

أعرف أنني أطلت عليك كثيرًا ولكن كل ما أريده أن أصف كل ما كنت أشعر به في تلك الفترة. أتذكر ما فعلت معي بعد تلك الفترة؟ لن أنساه منك ما حييت، كنت مكتئبة وفي أشد حالات الصمت وكنت أنت تلاحظ وتراقب في صمت أيضًا، كنت ترى عينيّ المتورمتين وتسألني فأجيب أن ابننا يستغرق مني مجهودًا فلا أهنأ بأي نوم لفترة طويلة، ولم تكلف نفسك عناء سؤالي عن السبب الحقيقي لما أعانيه.

لكن ذلك اليوم الذي تبعه بدأت حياة جديدة لكلينا. كنت قد بكيت كثيرًا ومن شدة إعيائي ذهبت إلى غياهب أخرى. لم أفق إلا على صوتك وأنت تهدهد صغيرنا، ذهبت تجاهك فابتسمت قائلًا:

ـ لم أشأ إيقاظك. اذهبي واستريحي. يبدو عليك الإعياء والإرهاق الشديد.

أشحت بوجهي عنك فأكملت:

ـ أرجوكِ اذهبي وسوف أهتم به أنا.

التفت نحوك في هدوء:

ـ ومن يهتم بي أنا؟ نظرت لي باستغراب:

ـ أنا أيضًا .. كل اهتمامي أنتِ وبكِ.

هززت رأسي:

ـ نعم .. أنت تهتم جدًا!

وضعت الطفل في مهده ووقفت مواجهًا لي ثم أمسكت بيدي:

ـ نعم، لا أهتم سوى بكِ ولا أسعى إلا لرضاك.

كنت هادئة هدوءًا غريبًا لكنه هدوء ما قبل العاصفة؛ لأنني نزعت يدي منك وقلت:

ـ لا أريد اهتمامك، أريد أن أكون وحدي.

فهمت أنها حالة من نوبات غضبي الذي أصبح عادة كل فترة، وصمت لبرهة ثم اقتربت مني مرة أخرى. حاولت تهدئتي، حاولت أن تضمني فابتعدت فقلت رغم ذلك:

ـ فلنتفق من اليوم، سوف أريك اهتمامًا آخرًا.

ـ لا أريده.

ـ اذهبي واستريحي الآن أرجوك.

فقلت لك وأنا أقف مواجهة:

ـ أوَ تعرف أين راحتي؟

فقلت باهتمام:

ـ أين؟!

ـ أن تتركني، يكفي إلى هنا لقد تعبت.

ـ أرجوكِ أريد تفسيرًا واحدًا لكل ذلك. هل قصرتُ معكِ ربما ولا أدري؟

نظرت إليك وقلت بهدوء:

ـ لا لم تقصر. بالعكس، أحيانًا اهتمامك يقتلني ويرهقني؛ فأنت تهتم وأنا لا أستطيع. فقط لا أريد أن أكمل.

حاولت أن تقترب ولكني أبيت عليك ذلك:

ـ سأتركك لبعض الوقت ترتاحين.

فقلت لك بصوت عالٍ:

ـ لا، أريد فقط أن تتركني. أنا لا أطيقك.

ووقفت مرة أخرى في مواجهتك:

ـ لمَ ترضى على نفسك ذلك؟ لا أتحملك لا أتحملك. أصبحت أكرهك وأكره ذلك البيت.

فقلت مفتعلًا الهدوء:

ـ أنتِ الآن عصبية لا تدركين ما تقولين. أرجوكِ اذهبي للراحة.

ـ يا الله! كم أنت بارد! لا أريدك ماذا أقول أكثر من ذلك؟!

ـ ولكن أنا أريدك وأريد طفلنا.

ـ وأنا سئمت هذه الحياة.

ـ سأتحملك.

ـ وأنا لا أتحملك. افهم يا رجل، لا أريدك!

وأمسكت بمنشفة في يدي وألقيت بها في وجهك وأنا أصرخ بأعلى صوتي: لا أريدك. وأوشكت أن أمسك بالهاتف لألقيه بوجهك فاقتربت وأمسكت بيدي قائلًا في هدوء ووجهك ممتلئ خجلًا:

ـ احزمي أمتعتك، سأحقق لك ما تريدين.

لم تقل أكثر من ذلك. أعرف أنني أهنتك كثيرًا، وكانت الأخيرة شديدة أن تعاملني بكل ذلك الحنان وأنا أقابله بكل تلك الإهانة. نعم، لك كل الحق أن تأخذ قرارك في دقيقة، حزمت أمتعتي سريعًا خوفًا من تراجعك. لم تتصل بأخي أو أي شيء. فقط تفاجأ بوجودي أمام الباب.

نظرت لأخي نظرة تحدٍ، وذهبت إلى غرفتي أنا وطفلي، وعرفت أنه دار نقاش بينك وأخي أنك ستأخذ إجراءات الانفصال بهدوء، وهذه هي رغبتي التي بحت لك بها كثيرًا، ولكن كنت تعطي لحياتنا فرصة أخري. نعم، قلت حياتنا ولم تقل تعطيني أنا. كنت تراها مشاركة ولكن قد انتهت الشراكة. أما قرارك بالنسبة للطفل فقد طلبت رؤيته في أي وقت أحدده أنا. تركت كل القرارات لي، كنت أصيلًا، رجلًا بقدر ومعنى الكلمة.

استقبلت حياتي الجديدة بهدوء. كنت أريد أن أنسى حياتي الماضية بكل ما فيها من زوجي الروتيني، وتعاستي وحزني. وأن أعيش وأنطلق، وبعد مرور شهرين تقريبًا طلبت من أخي أن أبحث عن عمل فرفض بحجة أنني مطلقة وكلام الناس والخلق، وأيضا عليّ الاهتمام بالصغير. كنت أنت تبعث بالكثير من النقود من أجله فقلت لأخي أنني سوف أدبر مربية جيدة من أجله ولكنك رفضت جدًا؛ فبدأت أعود لحالة تعاسة أكثر مما كنت لديك، ووصلت لدرجة أنني كنت أتعصب من أقل شيء، حتى وصلت لمرحلة الانهيار والأطباء. كثرة الضغوط على النفس تجلب إليها تعاسة ربما نفقد من خلالها الإيمان حتى بأنفسنا وبالحياة؛ لذلك خلق الله لنا الفرص حتى نرى بصيصًا من أمل ما هنا أو هناك. ولكن من يتفهم ذلك؟

كان أخي ينظر للمجتمع وما يريده أكثر مني ومن سعادتي التي أفتقدها. رضخ أخي مع الوقت لرغبتي، حتى لا أصاب بحالة اكتئاب ربما تجعلني أقوم بالانتحار كما حذره الأطباء. نظر أيضًا للوم المجتمع إن حدث ذلك؛ فوجدته بعدها بفترة على مائدة الطعام يخبرني بغيظ وضيق مكتوم:

ـ وجدت لكِ عملًا في إحدى المؤسسات. لن يرهقك كثيرًا، فقط ستقضين وقتًا تجدين فيه نفسك.

نظرت إليه بشبه ابتسامة وكدت أقول له لمَ لم تترك لي فرصة الخيار؟ ولكني تراجعت خوفًا من تراجعه وقلت:

ـ حقيقي؟! ومتى سأذهب؟

لم ينظر إلي. قال وهو يقلب الشوكة في طبقه:

ـ في أي وقت تحددين. سوف تذهبين معي وترجعين أيضًا معي في نفس التوقيت.

ـ حاضر.

وافقت دون أن أنبس بحرف واحد سوى تلك الكلمة. دبرت أمر المربية، وخلال عدة أيام ذهبت إلى العمل. كنت أشعر أنني أتنفس حقًا، كنت أشعر أنني كنت منعزلة عن هذا العالم وعدت إليه، وأنني أعود إلى نفسي. تجددت الرغبة بداخلي في الانطلاق، وكأنني يرقة خرجت من شرنقتها وأصبحت فراشة حديثًا؛ فبدأت بالانطلاق فرحة هنا وهناك، سعيدة بأجنحتها الملونة الزاهية، بدأت أذهب أيضًا إلى النادي مع زوجة أخي في المساءات التي كنت أشعر بالراحة من العمل فيها، ومن المؤسف أنني شعرت أنني فوت الكثير لم أحضره، تغير النادي كثيرًا، ولكن لم أكتشف بعد أن البشر قد تغيروا أيضًا. نعم، فوت الكثير ولكن شعوري الآن ليس كشعوري حينها، فوت الكثير من عمري. نعم، كنا نخرج سويًا وأنا زوجتك ولكن كنت لا أشعر بكل ذلك الانطلاق.

بدأت المضايقات الكثيرة في العمل، مطلقة! من السيدات والسؤال كيف ولمَ؟! ومن الرجال محاولات الحديث الذي ليس له بداية ولا يحددون له نهاية. لماذا يتدخل البشر في شئون غيرهم؟! لو اكتفي كل واحد بما فيه وما عليه عمله؛ لكنا تغيرنا كثيرًا، لكنا أجمل من الداخل حقيقة، ولكن هيهات. مع الوقت ـ لأستمتع بعملي ووقتي ـ وضعت حدًا لأي حديث أو سؤال معهم.

في البيت ود أخي لو أنني لا أحب هذا العمل في البداية، ولكن مع الوقت وجدني راضية فرضي وصمت وجعلني أكمل. وكنت أنت تطمئن علينا، أقول علينا لأنك كنت ما زلت مهتمًا بي؛ لأن زوجة أخي لمحت لي بذلك وكنت أشعر به، ولكنك أبدًا لم تطلب أن نعود. تأتي لرؤية صغيرنا غالبًا وأنا خارج البيت أو كنت أتعمد أنا ذلك. أحببت تلك الحياة، أصبحت أقيم صداقات وأزور صديقاتي. نعم، كان هذا يضايق أخي ولكن قررت أن أفعل ما يفيدني ولا يضر أحدًا، حتى ولو لم ينل إعجاب البعض. رُزقت حياة جديدة فلأستغلها. كنت أشعر أنني في طريق كان ينبغي أن أسير فيه من البداية؛ فلا بد إذًا أن أعوض ما فاتني.

لم أعد أبكي، كنت أضحك وأتضاحك وأخرج أحيانًا الطفلة التي بداخلي وأمرح مع أولاد أخي. وإن ذهبنا إلى الملاهي أصر أن ألعب معهم الألعاب.

كنت أطير وأرفرف بدون حذر، كنت أحلم وأتمادى في أحلامي حتى جاءت الأحلام طوعًا فالتقينا أنا وهو صدفة في نفس النادي. نعم، هذا الشخص الذي كنت قد أخبرتك أنني أحببته خلال الجامعة. صدمت، لم أكن أتخيل أبدًا أن أقابله مرة أخرى، أحيانًا كان لا يفارق تفكيري لكن لقاءنا هكذا كان سريعا. ما زالت ابتسامته كما هي، وما زالت حروفه رقيقة ووجهه ساحر. لقاء عابر سريع جدًا في إحدى طرقات النادي. لم يتغير كثيرًا بل لم يتغير إطلاقًا. أو ربما عندما نجد شيئًا نحبه نكتشف أن حلاوته تزيد مع الأيام ولا ننتظر أي شيء غير ذلك. ترك بداخلي انطباعًا زادني حيرة لكنني كنت سعيدة. ما زال يذهب إلى النادي، إذًا ربما نلتقي مرة أخرى بل مرات. كنت سعيدة وحذرة وانقلب كل ذلك لإحباط عندما التقينا فعلًا مرة اخرى، وطلب مني أن نشرب شيئًا. وافقت، جلسنا وبدأ يتأملني وأنا أيضًا. كنا بالأمس صغارًا بعض الشيء، اليوم نضجنا إلى حد ما. جلس يتحدث معي ويسألني عن حياتي. حكيت له كل شيء من آخر وقت كنا على تواصل. كان يستمع إليّ بكل إنصات واهتمام وتعبيرات وجهه تتغير مع مشاعري بالداخل. أحسست أنه ما زال يفهمني أو ربما أنا أريد ذلك لا أعرف! وخلال حديثي وأصدقك القول لم أسيء إليك أبدًا بل بررت كل ما حدث أنني لم أتقبل حياتي معك، وأنك منذ البداية قد فُرضت عليّ من قِبل أخي؛ لأنه كان يراك الأنسب من أي أحد آخر طلبني للزواج. وأنهيت حديثي وفي عينيّ شبه دموع. كنت أصف له حالتي التي وصلت بي لأن كرهت كل العالم وفكرت في مغادرته أكثر من مرة، لولا أنني كنت أخشى الله ومن موقفهم في الحياة ــ أخي وزوجي ــ

تأثر كثيرًا وتنهد وأخذ يرتشف من كوب العصير. نظر إلي طويلًا قائلًا:

ـ كأنك تحكين عني.

نظرت إليه بتعجب وقلت وأنا أنظر إليه عاقدة بين حاجبي:

ـ كيف ذلك؟

نظر بعيدًا وقال:

ـ حياتي ليست مختلفة كثيرًا عن حياتك، لقد تزوجت ولكن حقيقة حياتي أشبه بالجحيم. لم نتوافق يومًا معًا .

نظرت إلى أصابعه ويبدو أنه فهم ما أريد قوله فقال وهو يبتسم:

ـ نعم، إنني لا أرتدي خاتم زواج لأنني حقيقة لم أكن سعيدًا يومًا فلمَ ارتديه؟!

لم أدر ماذا أقول. تفكرت لبرهة قصيرة. هل هو يقول ذلك مثلًا حتى يواسيني؟ كلا، بالتأكيد لا أظن ذلك. ولمَ يفعل ذلك؟ أصلًا لم أظن في البداية حتى أنه متزوج أصلًا. بعد فترة صمت قال:

ـ أظن أننا سوف نرى بعضنا البعض كثيرًا لو لم يكن لديك مانع؟

قلت وأنا أبتسم:

ـ دع كل شيء للظروف.

نظر إلي مليًا:

ـ أصبحت أكثر هدوءًا وأكثر اتزانًا، فزادك هذا جذبًا.

ابتسمت قائلة:

ـ إن لم تستفد بما مررت به في حياتك إذًا فقد ضيعت كثيرًا من عمرك دون معرفة الحياة.

ضحك قائلًا:

ـ أصبحت حكيمة أيضًا.

ضحكت. الجمل الأخيرة بيننا استرجعنا بها ماضيًا كان مزهرًا بيننا، واتفقنا إن واتت لنا فرص الحديث مرة أخرى سنفعل. سندع ذلك للظروف. نعم، أزهر الماضي ولكنه متزوج ولا يحق لي حتى أن أتحدث إليه ولو كصديقة. وأيضًا تجربتي القديمة جعلتني لا أهتم أن أدخل بيتا جديدًا الآن. وإن حدث يومًا لابد وأن آخذ وقتي.

أصبحت أحد من ذهابي إلى النادي، وإن ذهبت لا أهتم أو أعود نفسي ألا أهتم. مر ما يقارب الشهر لم يحدث أن التقينا مرة ثانية، حتى لمحته من بعيد ورآني فأتى نحوي وألقى تحية تنم عن أنه يريد حديثًا، ولكني أوحيت إليه أنني على عجلة من أمري. بعدها اختفى تقريبًا. لم أره لفترة طويلة ربما نصف عام. كنت أنسجم أكثر في عملي، أهتم أكثر بصغيرنا الذى قارب على الثلاث سنوات. من قال أننا معشر النساء لا نقوم أو نقوى سوى بالرجل؟ كلا، إننا أحيانًا دونهم أقوى وأعقل وأكثر صبرًا. ربما لأننا نخرج ما بداخلنا من إرادة تهز جبال الكون. صدقًا كنت أكثر راحة ولا أعبأ لأي شيء، خاوية من المسئوليات. كنت أحب حياتي هكذا ولكن كعادتي أي شيء أحبه كثيرًا أعطيه كل وقتي إلى أن أقارب على الزهد فيه. حدث ذلك فترة ما في العمل، لكن كنت أكثر صبرًا عليه لأنه متنفسي في الحياة، فيه أخرج كل طاقتي التي أراها وأجدها سلبية.

قارب اختفاؤه على العام. لا أعرف تحديدًا كم من الوقت مر ولكن أظنه كذلك. ظهر ولكن هذه المرة ظهر في عملي. نعم، أتى إلى العمل. ظننته في البداية أتى من أجل عمل ما، ولكنه أتى من أجلي. وجدته جلس على الكرسي المواجه لمكتبي. رحبت به. كانت على وجهه ابتسامة. تحدث عن المكان الذي أعمل به أنه جميل والمكتب يليق بي، وبالتأكيد أنني أستحق كل ذلك. وأنا صامتة لا أتحدث. وصمت وابتسمت فقال:

ـ أريد أن أتحدث معك للضرورة.

ـ بالتأكيد. تفضل.

ابتسم:

ـ لا تحدثيني بطريقة رسمية هكذا. لم آت للتحدث عن عمل ما.

نظرت إليه في حيرة فأكمل:

ـ متى ستذهبين إلى النادي؟

ـ في المساء.

قال في مرح وهو يهم بالمغادرة:

ـ سأنتظرك.

وخرج ورحل وأنا لازلت مندهشة. كيف ظهر، ولمَ أتى؟ بعد رحيله وطريقته تلك كنت أريد أن أتراجع عن ذهابي للنادي. وبالفعل لم أذهب. لم أحب طريقته في الحديث، لم أحب الانسياق هكذا ولن يحدث أبدًا أن أفعل. وفي خلال ذلك الاسبوع طلبت مني الشركة أن أسافر في مهمة للعمل، وعندما أخبرت أخي قامت الدنيا ولم تقعد، كيف لي أن أسمح لهم أن يطلبوا مني ذلك في العمل؟ اختصاصك في العمل هنا في مصر أما أن تسافري فهذا مستحيل. دار نقاش حاد وانتهى بالرفض بتاتًا؛ فبت أكره تلك المعيشة التي أعيشها. متى أستقل بذاتي ويدعونني في حالي؟ متى أشعر أنني أقرر عن نفسي؟

استسلمت لقرار أخي كالعادة، ورفضت أن أسافر. اختلقت حجة مقنعة لهم في العمل فتقبلوها. ما سئمته حقًا هو معاملته لي هكذا كأنني عالة على مجتمعي. لا تخرجي كثيرًا لا مناسبات إلا في الحدود لا تتحدثي مع أحد وتطيلي الحديث لا ولا ولا ولا .. تعليمات لا تنتهي.

كنت قد انتقلت لمرحلة السأم من وضعي هكذا. لا تسخر مني أرجوك، لا تنس أنني بطبيعتي متمردة وعنيدة. أوَ تعرف شيئًا؟ تمنيت في تلك الفترة أن أكون معك! حقيقة كنت لا ترفض لي طلبًا، كنت تحب أن تفعل ما أحبه ويرضيني. ولكن مهلًا .. فكرت هكذا لوهلة ولم أطل في ذلك. في الواقع قارنت بين أمنيتي هذه وما أنا عليه. كنت أحب حياتي الجديدة كما هي. هكذا بكل مميزاتها وعيوبها. أرجع لنفسي في النهاية، ألومها أوبخها، أفرح معها أبكي بعيونها ولأجلها، كنت مع نفسي ونفسي فقط.

وجود آخر في حياتي في تلك الفترة لم يكن في حسباني ولم أتخيل أن يكون من؟ هو؟! نعم، وجدته يهاتفني يومًا ويلومني أنني لم أف بوعدي له وألقاه في النادي. فعللت ذلك لأسباب في البيت، وقلت له ربما لو كانت هناك فرصة للقاء سوف يكون. انشغلت أساءل نفسي، لمَ يلح في اللقاء؟ لابد في المرة القادمة أن أشرح له جيدًا أنه رجل متزوج وأنا لا أحبذ أن أتخذ أى دور في حياته، وأرجو أن لا يتطور الكلام أصلًا لذلك. والتقينا في أحد المساءات في النادي. كنت مع زوجة أخي وجاء إلى طاولتنا وألقى التحية وداعب الأطفال لبعض الوقت، وبعد رحيله تذكرته زوجة أخي فسألتني:

ـ أظن أنني رأيته من قبل.

لم أنظر إليها حتى لا تدرك أنني أهتم:

ـ إنه ذلك الشخص الذي تقدم لي قبل زواجي وكنت أريده، ورفضه أخي لأنه لا يعمل.

هزت رأسها:

ـ تذكرته. ثم ابتسمت قائلة:

ـ ماذا به؟ هل ما زال يريد أن يصل الود؟

هززت رأسي نافية:

ـ إنه متزوج.

وصمتنا. شعرت أن خيبة الأمل طالتها. كانت زوجة أخي رومانسية جدًا، وكانا قد تزوجا عن قصة حب. كانت تحبه بشدة وتتفهمه جدًا، وهو يرضيها بالطريقة التي يفهم أنها ترضيها. كانا متفاهمين كثيرًا حتى بدون حديث، ولكن لم أتعلم من حياتها أو أحاول أن أكون مثلها لأن لكل منا جميعًا على وجه الأرض طبيعته التي تختلف عن الآخر. منذ البداية أرادت أن تتم زيجتي معه لأنها تحب أن تتوج قصص الحب بالنجاح، ولكن خاب أملها.

في اليوم التالي وجدت إحدى صديقاتي القدامى اللاتي لم نتقابل إلا قليلًا منذ زمن، تدعوني لحفل عيد زواجها. طلبت من أخي فوافق، كان يعرف أنني أريد بعض الاستنشاق أحيانًا فلا يصدني في بعض الأشياء بشرط ألا أتاخر. كنا أنا وصديقاتي القدامى لا نتقابل إلا في مناسبة كهذه كل فترة طويلة. عندما ذهبت وجدتهن جميعًا هناك. كن قد عرفن عما حدث لي من انفصال، وكنت قد طلبت منهن في آخر لقاء ألا نفتح هذا الحديث مرة أخرى. كلهن مع أزواجهن إلا أنا. كنت حقيقة لا أهتم رغم تباهيهن كثيرًا. أحيانًا التباهي العلني يخفي وراءه كثيرًا من الرياء والتعاسة؛ لذلك أربابه لا يجدون وسيلة للتعويض سوى الكبت الداخلي والكذب العلني. وفجأة وجدته أمامي. لم أندهش كثيرًا فهو من الأصدقاء القدامى، ولكن كانت المرة الأولى التي أراه فيها هناك يحضر مناسبة معنا. أعتقد أن جميعنا أصابنا الاندهاش، وجدتهم جميعًا، كل الأصدقاء يرحبون به. وهكذا بدون سابق إنذار قال وابتسامة تملأ ثغره:

ـ لقد تحررت.

سألته إحداهن:

ـ ماذا؟ لا نفهم تحررت مِمَ؟

ـ لقد انفصلت منذ شهرين تقريبًا لذا سوف أحضر معكم كل المناسبات.

فردت بأسف:

ـ الانفصال تحرر! لابد أن تحزن. صمتت وأردفت قائلة:

ـ ولكن ما دمت سعيدًا لك ذلك. لتحتفل معنا.

وضحك الجميع وقاموا للرقص بينما جلست أنا للمشاهدة. وجدت صوته بجواري:

ـ أتتهربين مني؟

صمت لبرهة والتفت إليه وأنا أبتسم:

ـ ومم أتهرب؟

ـ لا أعرف، ولكن شعرت بذلك فسألت عن أخبارك وعلمت أنك ستحضرين اليوم فأتيت.

فقلت باندهاش:

ـ أتراقبني؟!

فابتسم وهو يغادرني:

ـ ولن أمل.

جاء بعد دقائق وفي يديه عصير لي وله، قال وهو يبتسم:

ـ ألا زلتِ تعشقين الفراولة؟

ابتسمت وأنا أقول:

ـ بلى، لم أتغير كثيرًا.

ـ بالفعل، لا زالت عيناك حزينة.

ابتسمت وأنا أنظر بعيدًا:

ـ ولا زلت تعرف من أين تؤكل الكتف.

ضحك بصوت عالٍ وجلسنا بقية السهرة سويًا نتحدث في الماضى والحاضر. قص علي حكاية زواجه الذي كما قال، قد تم بعد زواجي بمدة قصيرة. أراد أن يتزوج أية واحدة حتى يعوض بُعدي عنه ولكنه أساء الاختيار؛ لأنها لم تتفاهم معه يومًا ولم تفهم شخصيته. كنت أراقبه أحيانًا وأخرى أتمعن في حديثه الذي لا زال يتسم باللباقة واللياقة. لم يتغير كثيرًا، بل أصبح أكثر نضجًا، أو كما كنت أراه أنا من خلال كلماته. حقيقة استمتعت بالوقت ومر سريعًا لدرجة أنني تأخرت كثيرًا في ذلك اليوم، وعرض عليّ أن يقلني إلى البيت ولكني كنت اتفقت مع سيارة للأجرة من خلال شركة فهاتفتهم وأقلتني. والحمد لله أن أخي كان نائمًا وكنت على اتصال طوال الطريق بزوجة أخي التي استقبلتني دون أن يشعر.

كان قد مر على انفصالنا وقتها عامان ونصف العام. فترة استطعت فيها أن أجد نفسي كما أرى، وأن آخذ أي قرار بقوة سواء يخصني أو يخص أي شيء في حياتي؛ لذلك عندما تقرب مني هو وبدأ يتملك مشاعري كليًا مرة أخرى، وكنت داخليًا ونفسيًا على استعداد جيد لقبول ذلك المؤثر في حياتي. لن أحكي كثيرًا في تفاصيل لقاءاتنا وقربنا. تقريبًا تمت استعادة المشاعر التي كانت بيننا فيما مضى، واستطاع هو بحنكة تامة أن يتملك مني. كنت أنا في قمة سعادتي كأنني استعيد كل ما فاتني حقًا، وخاصة أن تلك المرة لم يخذلني كسابقتها بل جاء إلى أخي والحجة قد زالت، وأنا أريده أيضًا.

استطعت أن آخذ قرارًا يخصني أخيرًا، ربما لأنني أعتبر أن قرار انفصالي منك لم يكن قراري وحدي؛ لذلك كنت أشعر بحرية أكثر في قراري هذا. وافقت واستطعت أن أُقيم زفافًا يسعدني ويعوضني عن زيجتي منك. كنت أريد أن أعوض كل شيء، كنت أعتبرها بداية حياتي حقًا.

طلبتَ من أخي بكل ود أن تأخذ صغيرنا لديك، وأن يخبرني أخي أنك سوف توفر له كل الرعاية اللازمة، وإن قصرت في شيء سأستعيده أنا، مع أنه كان من حقك ولكن دون مبالغة، أرددها للمرة والمرات الكثيرة، كنت أصيلًا وأصيلًا حقًا.

ارتحلت إلي جنتي الجديدة التي رسمت فيها كل شبر، وباشرت ترتيب كل ركن بها. وذهبت معه بعد عرس جميل وراق وعذب. وكان هو أعذب شيء وأجمل وأرق البشر. أوَ تعرف الآن أنني أضحك بصوت عالٍ جدًا؟ ستعرف فيما بعد لمَ.

انتفضت من كل همومٍ مضت. كانت السعادة تكسو كل شيء في حياتي. حقًا كنت أعيش معه في سعادة. كان رقيقًا يفهمني ويعرف فيمَ أفكر دون أن أقول. كنا نحلم بحياتنا بعد عشرين عامًا وما سنفعله ونتساءل من منا سوف يحب الثاني أكثر، ويقول أنه سوف يحبني وأنا أجيب بل أنا أكثر ويتبارى كلانا في كلمة أكثر. كانت أحلامًا كثيرة وعادة وأنت سعيد تكثر الأحلام وتسع الكون كله، أحلام سعيدة وجميلة ومن القلب.

وعدنا للعمل أيضًا، للشلة القديمة، للقاءتنا. كنا نسهر كثيرًا جدًا. من الممكن أن يمر الأسبوع دون أن ننام قبل الواحدة ليلًا رغم العمل الباكر، ولكن كنت أرى أنني أعوض ما فاتني من مرح الحياة وضوءها وليلها وهواء الشوارع ليلًا. كنت أعيش الجنون في كل شيء معه.

سألته يومًا:

ـ هل أنت سعيد حقًا معي؟

فقال كما عهدته ذكيًا:

ـ كيف ترينني الآن معك؟

فابتسمت وأنا أداعب أنامله:

ـ قل لي أنني لست أحلم، هل حقًا أنت هنا؟! هل حقًا أعيش تلك السعادة التي أبت عليّ كثيرا؟!

فضحك قائلًا:

ـ أتودين أن أقرصك أيضًا؟

فضحكنا سويًا ثم دار عراك طويل بالوسائد والأيدي. كنت أشعر أنني مراهقة ومجنونة وعبثية وجميلة وكل شيء لكن به .. به هو، ولكن لتعيش سعيدًا لا تربط السعادة بشخص، عشها أنت، اخلقها أنت، حتى لا تجد يوما نفسك تائهًا، وقد يتيه بك البر إلى نهاية تودي بك لهلاكٍ وقد ظننت أنه بر النجاة.

أما صغيرنا فكنت أراه على فترات متباعدة وأنت تعرف ذلك، كنت أراه عند أخي وقد اتفقنا أنه كلما أحببت رؤيته استأذن منك أخي لتأتي به لديه. أعترف أنني مع هذا الشخص وما أردته من تعويض حياة ومشاعر وكبت نسيت كل شيء، حتى إن زوجة أخي قالت لي ذات مرة: "أشك أحيانًا أنك خارج مصر كليًا وكلما طلبت منك المجيء كأنك ستأتين بطائرة من مكانك! تذكرينا ولو لمرة، تعالي لزيارتنا عزيزتي فإني أفتقد الحديث إليك"

نعم، كنا متقاربتين في التفكير. تفكيرنا رومانسي، ولكن أنا عصبية وهي هادئة أحيانًا إلى حد البرود أو كما أظن أنا. ربما لذلك تتناسب مع شخصية أخي العصبية، تقابلها بكل هدوء وتفاهم.

مر تقريبًا على زواجنا ثلاثة شهور. تقريبًا سافرنا منهم عشرة أيام إلى إيطاليا بدعوة من شقيقته التي تقطن هناك مع زوجها. كانت كل الأحداث تثبت لي أن كل شيء في حياتي يُعوض تلك الأيام. كنت سعيدة ولا أعبأ بأي شيء سوى هو وسعادتي، وكنا على لقاء بالشلة كل يوم تقريبًا. نسهر ونتحدث ونرقص ونغني. كنت أتخلف عنهم مرات قليلة، ومع الوقت بدأت أشعر بالإنهاك والتعب. في البداية ظننته ربما

حمل ولكن أخبرني الطبيب أنه إجهاد ولابد لي من الراحة وعدم السهر كثيرًا وإراحة العين لفترة كافية بعد دوام العمل.

تجنبت السهر نهائيًا وكنت أريده أن يخرج ولا يتقيد بي، ولكنه أصر أن يلازمني. كنت أشعر مع الوقت بالملل والعصبية تتسلل إليه. كنت مقتنعة وقتها أن السبب هو ضغوط عمله وعدم التغيير طويلًا؛ فألححت عليه أن يخرج هو حتى لا يشعر بضيق حياته. كنت أنام مبكرًا جدًا وعندما يعود أسأله بابتسامة: "هل قضيت وقتًا جميلًا؟" فينظر إليّ ويهز رأسه قائلًا: "نعم نعم، ولكنه كان ينقصك" ثم يذهب في سبات عميق، وكان يحدث أحيانًا دون أن يبدل ملابسه.

كنت أسهر أنتظره وبعد عودته لا يبالي حتى أتناولت عشائي أم لا؟ كيف أنا اليوم؟ لا سؤال ولا تعليق. في المحن بالفعل تكتشف أشياءً كثيرة، البشر وما حولك وحتى بداخلك ربما تتعرف على الحياة لأول مرة وأنت لا تدرك ذلك.

بعد أيام وجدته يقول لي أن الشلة يريدون زيارتك وقضاء بعض الوقت معك؛ ففرحت جدًا بذلك الخبر وأعددت المكان للزيارة. وأتوا مساءً، كانت ليلة سعيدة. كنت أشعر حقًا أن لي أصدقاء. ملحوظة: إنني الآن أضحك بسخرية. أصدقائي جاءوا للتغيير، وجدتهم كل شخص مع نفسه. يضحكون دون حتى أن يُبالوا بالأصوات العالية وحرمة البيت.

تذكرتك. كنا مرة نزور قريبة لي وضحكت بصوت عال؛ فقلت لي بعد عودتنا: "في زياراتنا الخارجية عمومًا يجب أن لا يعلو صوتك حتى لو كنت تعرفينهم جيدًا؛ فأنت لا تدرين في أي مزاج هم، وأيضًا صيانةً لحرمة نفسك والبيت".

دقت الساعة العاشرة فوجدتهم يطلبون الإذن للرحيل، ووجدته يهم بالخروج معهم، أوقفته جانبًا وسألته:

ـ هل ستخرج معهم؟!

أجاب وهو يهندم نفسه:

ـ نعم.

فقلت في رجاء واضح:

ـ هل لك أن تمكث معي الليلة؟ إنني أريد أن آنس بك.

فقال وهو يقبل جبيني:

ـ لن أتأخر، أعدك بذلك.

هممت أن أرجوه ولكنه كان قد رحل وأغلق الباب خلفه. أحسست بفراغ طاغ في البيت وأكثر في داخلي. ظللت ساهرة طوال الليل لا أستطيع النوم، وددت لو خرجت معهم، ولكن ليس هذا ما أريده. كنت حقًا أفتقده، أفتقد التحدث اليه أفتقد دفئه بجواري؛ فمنذ فترة لم نجلس للتحدث كثيرًا. ولكن بعد أن هدأت خلقت له تبريرات عديدة.

نعم، عندما تحب شخصًا تجد له ألف وسيلة للغفران، بل تخلق وسائل عدة من أجل أن ترسخ بداخلك أنه غير مخطئ وأنك تتسرع في إطلاق أحكامك عليه؛ فترد كل صفعة منه برضا وود، ولكن الأقسى أنه يرد رضاك بتمرد.

ونمت تلك الليلة ولم أدر متى عاد. وعندما سألته صباحًا أجاب أنه عاد قبل الفجر، ولم يزد، ولم أعد السؤال بصيغة أخرى فقط تجنبت المناقشة؛ فربما تخرج عصبيتي فأزيد الأمر سوءًا. اكتفيت ألا أعلق، كنا مؤخرًا لا نجلس سويًا كثيرًا. كنت أعود من العمل فأجده نائمًا. يستيقظ نأكل ويخرج. ولكن ذات ليلة بعد تناول الطعام طلبت منه أن يرفع معي المائدة كما كان يفعل أيام زواجنا الأولى؛ فنظر إلي وقام في بطء وعلى مضض. قلت له أثناء ذلك أنني أريده اليوم أن يقضى المساء معي. لقد أعددت برنامجًا جميلًا وسهرة ستعجبه، وأريد أيضًا التحدث إليه لأني أفتقد حديثه.

حاول أن يبرر كثيرًا ولكني ضغطت بشتى الوسائل ففعل. سعدت بقراره كثيرًا، وبالفعل أعجبه ما فعلت، وشعرت أنه كان سعيدًا، وتحدثنا عن أشياء كثيرة ولكن كانت تتخللها فترة صمت كنت أقطعها باختلاق أحاديث عن أشياء كثيرة عن الشلة وأصحابنا وأخته وعائلتي، وصغيري. ثم نظرت إليه قائلة:

ـ أريد حقًا أن أنجب منك أطفالًا.

فرد بقلة اهتمام:

ـ سنفعل يومًا ما. دعينا نستمتع بحياتنا أولًا، الأطفال هَم ومصروفات.

ـ أتمنى أن يكون قريبًا.

ـ لديك طفل. لا أعرف لمَ كل تلك الجلبة على المجيء بأطفال؟!

نظرت إليه في حب:

ـ إنه طفلي أنا. أريد طفلنا، أريد أن نتشارك قطعة منا نحن الاثنين.

فقال وهو يتنهد:

ـ سنفعل يومًا. لا تتعجلي.

ـ ما رأيك أن نزور طبيبًا؟

نظر إليّ في شبه غضب.

ـ ولمَ الطبيب؟ ليس بي عيب ولا أنتِ.

ـ هل أنت أيضًا لديك أطفال؟ حقًا إنني لم أسألك يومًا.

ـ لا، ليس لدي ولكني زرت طبيبًا مع زوجتي السابقة وقال ذلك.

ـ إذًا لتزره معي دعنا نفعل.

فقال بتبرم وكنت أشعر أنه يكتم غضبه:

ـ لا أريد أن أزور أطباء، ودعينا نكمل السهرة في سعادة.

فقلت باستسلام:

ـ كما تريد، ولكن هناك طلب آخر.

ـ ما هو؟

ـ أريدك أن لا تسهر كثيرًا حتى تحافظ على صحتك من أجلي.

ـ سأقول لكِ شيئًا، لا تطلبي مني ذلك مرة اخرى لأنني لن أفعل؛ لذلك لا تطلبيه مني ونضيع وقتنا في حديث مفروغ منه.

فقلت وأنا متحفزة:

ـ ولكن ليس كل يوم على الأقل .

ـ لا، كل يوم. إنني أرى أن صحتك تحسنت كثيرًا، ما رأيك أن تعاودي السهر معنا؟

هززت رأسي نافية:

ـ لن أستطيع. أنت سمعت ما قاله الطبيب عن السهر وصحتي.

ـ إذن لا تتناولي الحديث مرة أخرى عن سهري.

ـ وأنا؟ ووقتك الذي من المفترض أن تخصصه لي؟

ـ أعدك أننا سنسافر قريبًا إلى مكان يرضيكِ.

ـ لا أريد السفر. أريد استقرارًا في بيتي. أرجوك فكر مرة أخرى أن تخصص ولو ثلاثة أيام لي في الأسبوع دون سهر.

فقال وهو ينهض:

ـ ولا يوم، حتى هذا الوقت سأخرج فيه. أول مرة أشعر أنك تحبين النكد هكذا.

ـ ستخرج؟!

ـ نعم.

دخلت خلفه غرفة النوم، وجدته بالفعل سيرتدي ملابس الخروج، ومن عصبيتي أعدت ما أخرجه ليرتديه إلى الخزانة مرة أخرى؛ فنظر إليّ في غضب، وشرع في مهاجمتي لولا أن وضعت كلتا ذراعيّ أمام وجهي. وجلست في ركن الأريكة وأنا

أبكي ولم ينظر حتى إليّ. ارتدى ملابسه وخرج. وظللت أبكي إلى أن أصابني الإعياء فنمت في مكاني.

استيقظت صباحًا. وجدته في غرفة النوم يغط في نوم عميق بنفس ملابس الأمس. من الواضح أنه عاد فاقدًا الوعي مما يتعاطاه مؤخرًا. كنت أحيانًا أكذب نفسي ولكنه تمادى في ذلك. لم أوقظه، كنت منهكة جدًا. ذهبت إلى عملي وعدت على بيت أخي. قررت أن أقضي بقية اليوم هناك. بذلت كل جهدي حتى لا تلاحظ زوجة أخي ما أنا به. عللت مجيئي أن زوجي لديه عمل كثير اليوم فقلت في نفسي أستغل الفرصة لآتي وأقضي بقية اليوم هنا. قالت لو كنت رتبت كل ذلك ونحضر صغيرنا من عندك، أخبرتها أنه من الممكن في يوم آخر. فكرت في ذلك ولكن لن آت به في يوم جل تفكيري ليس له وفيه.

كنت غاضبة وحزينة من داخلي، ولكن كنت أطمئن نفسي أنه لابد وأنه ندم وسيفيق ويعتذر، ولكن هيهات. قضيت كل اليوم حتى قاربت على السهر ولم يتصل بي حتى ليسأل أين أنا. استسلمت لأمري وعدت إلى المنزل لأجده خاويًا، دخلت الغرفة وجدت بها أعواد كبريت وسجائر حديثة. عرفت أنه جاء وخرج أو كما يفعل كل يوم.

ألهذه الدرجة لا أحدث فرقًا في حياته؟ تساءلت مع نفسي وأنا في قمة ثورتي، كنت على وشك الانفجار ولجأت في تلك الليلة إلى المهدئات حتى نمت واستكان جسدي ولكن في غرفة أخرى. ومثلما حدث بالأمس حدث في اليوم التالي. ظللنا هكذا عدة أيام ولكن كنت قد هدأت وفكرت جيدًا؛ فجئت من العمل مبكرًا وأحضرت الطعام وانتظرته.

عندما حضر هممت أن أتحدث ولكن وجدته يخرج من جيبه علبة بها هدية ثمينة، وباليد الأخرى دب كبير، وأشار إلى العلبة: "هذه الهدية لك أما الدب فلشخص

آخر" وأكمل مبتسمًا: "للطفلة التي بداخلك؛ فأنا أريد أن أدللها أيضًا كما أدللك".

فابتسمت وأخذت الدب بذراع وبالذراع الآخر أمسكت يده، وتصالحنا.

وبالفعل خصص لي ثلاثة أيام في الأسبوع دون سهر. كنت راضية جدًا بهم، وكنت أبذل قصارى جهدي لأسعده كما يفعل هو، أو كما ظننت أنه يفعل. أما الإنجاب فقد فاتحته مرة أخرى فرفض، ولم أفاتحه إطلاقًا في هذا الأمر بعدها.

رضيت بوجود طفل لدي حتى إن كان من زوج آخر لا أعيش معه. وكان مجرد وجوده يرضيني. أما كونه راضٍ هكذا فهذا أيضًا كان يرضيني. أعترف أنه في تلك الفترة كان ودودًا يحاول أن يثبت لي أنه يحبني بشتى الطرق، غير أنه كان متقلب المزاج كثيرًا. كنت أتجنبه في تلك الحالة ولقد اعتدته وكنت أتحمل تقلباته، أنا العنيدة المتمردة وجدت من هو أعند مني، وكأن الدنيا تعطيني درسًا، وأظنه كان بداية الدرس وأي درس؟!

طرق على الباب بسرعة شديدة. تركت دفترها والقلم، هرولت نحو الخارج فوجدت ابنها الحبيب وقد امتلأت عينيه بالدموع. جرى إليها فاحتضنته بين ذراعيها، وسمعت زوجة أخيها تتحدث في الهاتف. أنهت المكالمة وجاءت نحوها، أشارت إلى الهاتف وقد أنهت الحديث:

ـ إنه والده.

نظرت إلى ابنها وحضنت بكلتا يديها وجهه:

ـ ماذا حدث ماذا بك؟

قالت زوجة أخيها:

ـ دعيه الآن.

ـ دعيني أطمئن عليه أولًا.

ـ لن يتحدث وهو هكذا. دعيه يأخذ حمامًا ساخنًا.

وغمزت إليها فأخذته إلى حجرته، ثم خرجت وعلى وجهها تعبير غريب. وجدت زوجة أخيها على الأريكة فتبادلا الابتسام فقالت لها:

ـ لقد نام.

ـ هل عرفت منه ما حدث؟

ـ قال إن أباه وبخه كثيرًا أمام صديقة له في المدرسة وأحرجه. وكان يبكي بشدة فجعلته ينام.

ثم التفتت إلى زوجة أخيها قائلة:

ـ أليس هو الذي كان يحدثك؟

هزت رأسها وضحكت:

ـ بلى هو، أوَ تعرفين شيئًا؟ لديك ابن عنيد مثلك.

نظرت إليها باندهاش:

ـ لم تقولين ذلك؟! ماذا حكى لك ما القصة؟

ـ ذهب إلى الملاهي وقابلا صديقته تلك هى وأسرتها، الفتاة تريد أن تلعب كل الألعاب، وأسرتها ترفض. وأنت تعرفين أن ولدك لا يفوت أية لعبة، في خلسة من الجميع أخذ الفتاة وركبا لعبة ارتفاعها عال جدًا. طال البحث عنهما ويبدو أن الفتاة لم تتحمل اللعبة فانتهيا منها وهي منهارة. سمع والده والأسرة ضجة فذهبوا نحوها فإذا الفتاة منهارة وفي حالة بكاء شديد، وولدك يحاول تهدئتها وهي ترفض الحديث معه؛ فاتهمه والد الفتاة أنه هو من حرضها فوبخه والده بعنف أمام الجميع. ويبدو أن اتهام الجميع له جعله يصرخ في والده أنه يريد أن يأتي هنا، فوبخه والده أكثر لعلو صوته، وكاد أن يضربه ولكنه تراجع، ثم أحضره.

عضت على شفتها قائلة:

ـ لدي ابن حساس جدًا.

قالت زوجة أخيها وهي تضحك:

ـ ورومانسي أيضًا. يبدو أنه صُدم من اتهام الفتاة له.

شاركتها الضحك قائلة:

ـ أعتقد أن والده انفعل أكثر لانه رآه يشبهني.

ـ قال إنه سيرضيه بطريقته ويعتذر منك لو رأيت أنها قسوة في التعامل معه.

صمتت برهة وقالت:

ـ هذا الرجل يعاملني بلطفٍ لم يراه مني أبدًا، بل كان يرى مني كل عبوس.

ـ هذه طبيعته، وصدقيني هذا الرجل لديه مشاعر لم تتركيه يخرجها لك، كنت...

لم تكمل زوجة أخيها. تعرف أنها فهمت ما فعلته بنفسها وحياتها، ربما لأنها كانت بالفعل تعيش في الأحلام والروايات كما قال زوجها الثاني.

ابتسمت لزوجة أخيها ونهضت متثاقلة إلى غرفتها. أمسكت الدفتر وكتبت:

"اليوم أتى صغيرنا يبكي من معاملتك له، وتطلب مني الصفح عن معاملتك. أريد أن أقول لك أنه ابنك أيضًا، وكف عن معاملتي هكذا. لماذا تعاملني هكذا؟! كل هذه الطيبة وكنت قاسية معك، أوَ تدري أنه كلما أتيت لي في كل عيد ميلاد بهدية كنت أود كسرها أو حرقها؟ كنت أشعر أنك تطاردني ولكني احتفظت بكل تلك الهدايا. كنت تبعثها في ملابس صغيرنا عندما يكون معك، وتكتب ورقة صغيرة: "ليظل الود قائمًا من أجل الصغير، ولا أريد سوى الود" ولكنك مؤخرًا .. لا، منذ فترة لا تبعث أي ورود حتى. لقد خرجت من دائرتك تقريبًا حتى كتابي هذا لا أدري أسوف أبعثه إليك أم لا؟!

شرعت في بكاء طويل ولكن هل كل كتاباتها تلك لأنها بالفعل تشعر أنها خرجت من دائرته؟ أهي في احتياج لاستعادة اهتمامه أم تريد الاعتذار عما فعلته معه أثناء حياتهما المشتركة؟

النفس البشرية تحتار مع ذاتها أحيانًا، تريد رضاها، وأحيانًا تتخبط ولا تدري إلى أين المفر منها، ولكن في النهاية أن تحاول التواصل بذاتك فتلك خطوة جميلة.

كفكفت دمعها واستعادت نفسها كما تفعل دائمًا. ماذا جنت الروح من الدموع سوى كثرة الحزن؟! وكل يوم يزيد شحوبها! هي من كانت منطلقة دافئة، أصبحت لا تقوى على مسايرة حاضرها. انعزلت عن العالم وبدأت تتلمس هدوءًا، ولكن بعد العزلة حنت لتلك المشاعر الدافئة، مشاعر أججها والد صغيرها. ماذا يجني الإنسان من الحياة سوى التعب؟! ولكن بعض التعب نصنعه بأنفسنا، لا نتوجه في اختياراتنا للعقل وحسن التقدير فتكون النتيجة ضياع عمر، وتيهًا في حياة بلا معنى.

"سأكمل لك أصعب فترة عشتها في حياتي. ليس سهلًا عليّ أن أقصها عليك، لقد توقفت عن الكتابة عدة أيام وها أنا أعود لأكمل، توقفت لشعوري بأن كتاباتي بلا جدوى ولكن حتى ولو لن أبعثها إليك فقد أصبحت تلك الكتابات تريحني.

تلمست طريقي معه كأنني أمشي في درب مظلم، لا أعرف نهايته، ولكن أكملته عسى أن أجد نقطة نور أرى من خلالها نهاية هذا الطريق. عادت الحياة بيننا هادئة مستقرة الى حد ما، وكان هو التزم بعدم السهر في الأيام المخصصة لي بالفعل. وكنت أحاول أن أجذبه أكثر إلى أن يلتزم بعدم السهر طيلة الأيام. حثثته أيضًا على ألا ينخرط في طريق الشراب لأنني كنت أشعر أنه يفعل ذلك. نعم، كان يعود منهكًا أيامًا وكفاقدي الوعي من التعب والسهر، كنت أثق أنه يتعاطى منشطات للسهر أو نوع من المخدرات، قبل أن أعرف أنه مدمن على الخمر.

عاد يومًا قرب أذان الفجر تقريبًا. كان مخمورًا تمامًا ورائحة فمه تشي بذلك. عندما جاء بجواري على الفراش حاولت إيقاظه كي يذهب للاغتسال ولكنه دفعني دفعة قوية طرحتني أرضًا. لم أقو على إيقاظه مرة أخرى، وبررت دفعته لي بأنه كان فاقد الوعي. تكرر الأمر أكثر من مرة، يعود قرب الصباح فاقد الوعي لدرجة أنهم اشتكوا

منه في العمل بسبب أنه لا يذهب كثيرًا. ثم تم نقله تأديبيًا لأنه أيضًا تعدى على زميل له، هذا النقل جعل الراتب يقل، مما دفعه للعصبية أكثر.

أصبح يخرج شبه يوميًا وإن طلبت منه أن يمكث معي لا يرد عليّ! فقط يخرج. إلى أن عاد يومًا متأخرًا وكنت قد فاض بي. ودخل الغرفة فضغطت مفتاح النور وقلت له:

ـ حمدًا لله على سلامتك.

لم يرد. نظر إليّ وأشاح بيده فقلت في غيظ:

ـ لقد سئمت تصرفاتك تلك. نريد ان نجد آخر لها.

فقال وهو شبه واع:

ـ ماذا تريدين؟

أمسكته من أحد ذراعيه وأدخلته دورة المياه، دفعته في حوض الاستحمام ثم فتحت صنبور المياه عليه حتى يفيق. نعم، أفاق ولكن عليّ! نهض من تحت المياه وأمسكني من شعري وظل يضرب فيّ بيديه ويركل برجله وأنا مذهولة بداخلي ولا أقوى على التنفس. ومن كل نفس متصاعد وجع. وقلبي الذي كان كل ما يحدث كالصدمة عليه. وبعد أن انتهى تركني وغير ملابسه، وكان صوتي عاليًا بالبكاء فجاء مرة أخرى وقال بصوت عالٍ وهو يحذر: "لا أريد أن أسمع صوت نهنهةٍ حتى، أريد أن أنام وإلا أكملت ما بدأته" ولشدة خوفي كتمت صوتي. وبعد أن اطمأننت أنه نام، زحفت إلى غرفة أخرى. ظللت أبكي بشدة وأنا وكل ضلع في جسدي يئن من الوجع.

أترى أنه صعب عليّ أن أقص ذلك الجزء من حياتي؟ لم تكن هذه المرة الأخيرة التي يفعل بها ذلك. كان لأتفه الأسباب يفعلها. الأغرب أنني لم أعد أستفزه بحديثي أو أطلب منه شيئًا. وكان يأتي ليطلب ما يريد وإن تأخرت قليلًا شرع في ضربي بأي

شيء. تذكرت عنفك معي مرة واحدة بأن ضغطت على رسغي فاتهمتك بالقسوة، ها أنا أجرب أشد أنواع القسوة والقهر.

كنت لا أستطيع أن أشكو، خشيت أن أذهب لأخي وأشكو فأرى الشماتة في وجهه. هذا اختياري ومن قبله كنت أعيش ملكة معك، وكنت مدللة ولكن ماذا فعلت؟ قابلت كل ذلك بجحود وأظن أنني بالفعل نلت عقابًا قاسيًا.

اكتشفت مع الوقت أنه يقامر، أصبح مؤخرًا مع قلة الراتب وخسارته أكثر عنفًا. ذات مرة دخل المطبخ وكنت لم أنته من إعداد الطعام بعد؛ فضربني بالمغرفة فأصابت جانب عيني الأيمن وجعلته منتفخًا ولونه أزرق. كنت ذلك اليوم على موعد للقاء صغيرنا عند أخي. ارتديت نظارة شمسية وذهبت، ولكن صادف أن قابلتك وأنا على باب المصعد، وكنت أنت مغادر لا أعرف إن كنت متذكرًا أم لا. ألقيت التحية فرددتها بصوت خافت وسريع، دخلت بسرعة وأغلقت الباب حتى لا تلاحظ عيني، ودخلت المصعد في نوبة بكاء جعلتني أهبط بالمصعد مرة أخرى وأصعد حتى لا يلمح أحد مظاهر بكائي، وعللت الكدمة لزوجة أخي أنني ارتطمت بالكرسي.

ظل على حاله هكذا ولكن كان يعود صباحًا معظم الأيام. كنت أصحو في الفجر وأصلي وأدعو كثيرًا أن يهديه الله. أتعرف أنني تذكرتك في إحدى المرات التي رجع بها فجرًا؟! كان مخمورًا جدًا، والصلاة تؤذن. تذكرتك وأنت توقظني للصلاة في ذلك الوقت وأنا أنهض على مضض، وأنت تقابل ذلك بابتسامة وتقول لي: "في البداية ستشعرين أنه متعب أن تستقيظي وأنتِ في جميل نومك، ولكن ما أجمل صلاة الفجر وراحتها!"

أعترف لك الآن. نعم، ما أجمل راحتها! يا للمقارنة! بين هادٍ يدعوني للسعادة وعاصٍ يدعوني للتعاسة. كنت أدعو الله أيضًا أن يقبض روحي ويريحني كلما ضربني، كنت أتخيلني أشكو لأخي فيصب اللوم علي، كنت أريد ألا أعيش لأتذكر

كل تلك الإهانات. أنا من تربيت على الدلال والعيش السعيد أصبحت منكسرة الخاطر وعابسة.

لاحظت زوجة أخي ذلك وكنت أبرر أنه قلقي لأنني أريد طفلًا منه؛ فتقول لي لا تتعجلي الأمر، ربما تضغطين على نفسك وهذا هو السبب؛ فأصمت وأنا أردد بداخلي: "بل الحمد لله أنني لم أفعلها". بدأت في أخذ وسائل منع الحمل وطلبت من الله أن يسامحني. كنت على يقين انني لن أكمل معه، ولم أرد أن أعود إلى أخي بطفل آخر.

وبالفعل عدت، ولكن هذه المرة عدت عن طريق المستشفى. لا أدري إن كنت تعرف أم لا. كان ذلك اليوم عائدًا في شدة عصبيته ويريد أموالًا؛ فقلت أنه ليس لدي إلا ما يعيننا على الحياة لآخر الشهر أنا وهو؛ فلكزني وبعدها دفعني بقوة ودخل إلى خزانة الملابس يفتش في كل مكان. أسرعت إلى حقيبتي وتشبثت بها بشدة؛ فأسرع نحوي وجذبها لكنني كنت أمسك بها بأشد ما لدي. ضربني ضربًا مبرحًا وأخذ الحقيبة. ويبدو أنه لم يجد ما يكفيه؛ فجذبني من شعري وسألني أين أخبيء النقود. أخبرته أنه ليس لدي إلا ما وجد؛ فعاود ركلي من جديد إلى أن بدأت أنزف من أنفي بشدة. حاولت أن أتفادى ركلاته، كنت أزحف على الأرض إلى أن وصلت إلى أحد الكراسي، ارتكزت عليها وقمت ثم حاولت أن أجري. خانتني قدمي ووقعت بالقرب من باب الشقة وهو لا زال يطالبني ويسألني أين أضع النقود. حاول أن يدخلني مرة أخرى إلى غرفة النوم لأدله على المكان، ولكني فلت منه وأسرعت نحو باب الشقة ففتحته وحاولت الصراخ. حاول جذبي ولولا خروج أحد الجيران عندما سمع صوتي ربما كنت فقدت حياتي في ذلك اليوم.

نقلني الجيران إلى المستشفي وسمعت بعضهم يطالب أن يبلغوا الشرطة، إلا أنهم لم يفعلوا، ولكن أخي أصر عندما وجد حالتي هكذا.

مكثت في المستشفي أسبوعًا لمعالجة ما بي من رضوض وكسور في الضلوع، لكن كل هذا لم يكن أكبر من وجعي الداخلي بسبب كسر همتي وحالي. كان أخي مصدومًا ومشدوهًا، كيف لأخته المدللة التي لا يستطيع هو نفسه أن يعلي صوته عليها، كيف يحدث لها كل ذلك؟! أصر أن تحضر الشرطة وترى ما أحدثه ذلك المعتوه كما قال.

بعد شفائي عدت مرة أخرى إلى بيت أخي، ولكن هذه المرة خائبة منكسرة. أصر أخي أن لا أكمل معه فتم الطلاق، ولكن شتان بين هذه المرة وسابقتها. المرة الأولى أخذتني من بيتي مُعززة وأعدتني إليه مُكرمة. أما هو فرفض في البداية وأصر على الرفض، وأدركنا مع الوقت أنه يفعل كل ذلك حتى نتنازل عن كل شيء؛ فقلت لأخي أنني أوافق. لا أريد أي شيء سوى أن يتركني لحالي. وتم ما أردته بعد أن استمر زواجي منه ما يقارب العام ونصف.

أتركني أنت لحالي؟! لا، بل ظل طيف أصالتك يطاردني، بعثت إلى أخي أنه إن كنت أريد في أي وقت أن أسترجع صغيرنا فهو على استعداد أن يفعل، وبعد عدة شهور تم بالفعل. أردت أن أضمد جراحي من خلاله فاستعدته، وأكملت حتى الآن به وحده. حتى العمل تركته، أردت أن أنفصل عن العالم، لم أتحمل كل ما حدث لي. عشت فترة سيئة نفسيًا سيئة بكل المقاييس، وعندما بدأت أستعيد نفسي استعدت كل حياتي معك.

كنت أتذكر كلماتك لي. قلت لي مرة:

ـ لمَ أنتِ دائمًا حزينة هكذا؟ أرجوك اضحكي. إن لم نخلق السعادة بأنفسنا فنحن لا نستحق أن نعيش أي سعادة، دعينا نفكر في شيء يسعدنا، نخفق بيضة ونصنع حلويات أو نحرق الملابس الجديدة ونحن نقوم بكيها!

فضحكت جدًا على الأخيرة فقلت لي:

ـ نعم، نحرق الملابس الجديدة حتى نشعر كم كانت عزيزة علينا، ونتعلم ألا نحرق مشاعرنا أو مشاعر الآخرين فمشاعرهم عزيزة أيضًا.

نعم، حرقت المشاعر ولم أتعلم. كنت تنبهني بذكاء وكنت أدير ظهري لك.

صدقني إن قلت لك لمَ أكتب كل ذلك وأدرك أنه ربما لن يصل! سوف أتركه للزمن، ربما تراه وأنا على قيد الحياة أو لا. يومًا ما ستراه، سيكون اعترافًا مني أن الحياة ليست كما تتهيأ لنا أحيانًا؛ فمن الممكن أن تجدها فيضًا من الألوان الزاهية ولكن عندما تجرب أن تلمسها بيدك إما أن تجدها لهيبًا، أو تجد كل تلك الألوان أصبحت خليطًا عشوائيًا ممزوجًا باللون الأسود؛ فيجعلها لوحة رمادية تحتها نيران. أتمنى أن يجعل الله لك عمرًا مديدًا حتى يصل إليك مخطوطي".

التائهة

تنهد. أزال النظارة من على عينيه وفرك إحداهما بيده الأخرى. نظر جيدًا إلى دفترها وقرأ "التائهة" مرات كثيرة وضحك. رجع بظهره للوراء يريحه على خزانة الملابس. نظر إلى سقف الغرفة وابتسم وهو يتذكر يوم ذهب إلى حفل نهاية العام الدراسي لصغيرهما فتقابلا هناك. كان منذ فترة طويلة لم يرها، كانت هادئة، عيونها ثابتة تنظر للاشيء. كان ينظر إليها نظرة التائه إلى نجمة كي تدله على جهة ما، لكنه كان يعي أنها ليست له، تفكيرهما لا يتقابلا.

هى لا تحب طريقته في الحياة فأبدًا لن يفكر في العودة. يكفي أن الصغير بينهما، من خلاله يكتفي بأن يطمئن عليها، أيضًا صداقته من بعيد لأخيها كانت تضفي على حياته بعدًا عائليًا ما بينهما، ولكن كان دائمًا لديه أمل أن يكون هناك نقطة تلاق .. ربما! انتهى الحفل واستأذن أن يأخذ الولد إلى مطعمهما المفضل هو وصغيره فوافقت، وعلى استحياء طلب منها أن ترافقهما فقالت بتردد:

ـ لم أخبر أخي بذلك.

قال في خيبة متوقعة:

ـ كما تريدين. هل تريدين أن أقلك إلى المنزل؟

أجابت في تردد:

ـ لا، سوف آخذ سيارة أجرة. طريقنا مختلف أظن.

ظن أن كلامها يشير إلى ما في تفكيره من بعد من ناحيتها؛ فهز رأسه ولم ينطق.

خرجا وهو على وشك ركوب السيارة، سمع صوتها خلفه:

ـ أظن أن أخي لن يقل شيئًا، وسوف أستأذن منه ونحن في الطريق.

نظر إليها في دهشة قائلًا غير مصدق:

ـ تفضلي!

ودار حول السيارة وهي خلفه ففتح لها الباب. استقلت السيارة.

وصلوا الى المطعم وتناولوا وجبتهم، قام الصغير للعب وكانت هي شاردة تراقبه وهو يذهب. ظلا صامتين فقطع الصمت بقوله:

ـ كنت أريد أن أحادثك أنه ربما أسافر بعد فترة إلى الخارج، ربما تكون أوروبا، وسوف استمر فترة طويلة. هل لصغيرنا أن يرافقني؟ التعليم في أوروبا جيد جدًا.

التفتت إليه وبدا على وجهها القلق:

ـ أوروبا!

ـ نعم، من أجل التعليم. واعتبريني لم أقل شيئًا إذا شئت ذلك.

وصمتا ثم بعد برهة تحدثت:

ـ أوروبا جميلة. وأعرف أن تعليمها جيد ولكن أخشى أن يتطبع بطبعهم، هل لديك خطة ما مثلًا أن تجعله يحافظ على هويته هناك؟

ـ لا، لم أفكر في أي خطة. لكن إن انتويت بالفعل أن آخذه بعد موافقتك ستكون لدي كثير من الخطط.

قالت وهي تتنهد في أسى:

ـ هو ابنك، تستطيع أن تأخذه إلى ما فيه الخير له.

ـ هل ترافقينا؟

قال جملته الأخيرة في سرعة وعدم إدراك أو وعي، خرجت عفوية تشي بكل ما به، وتعبر عما يريده. كانت جملة في صورة سؤال.

نظرت إليه في دهشة وهو في ارتباك، عجز لسانه أن ينطق كلمة أخري، أراد أن يتراجع عن سؤاله أو يجعل مقصده شيئًا آخرًا لكنه صمت. ربما كان صمته أمل داخلي عميق.

لم يتلق ردًا وجاء الصغير يلهث من اللعب؛ فطلبت الرحيل. زجر ابنها فنظرت إليه وابتسمت، ثم رحلوا وطوال الطريق لم يتحدث أحد. كانت هي شاردة وهو يفكر،

كيف فهمت كلامه؟ كان يخشى أن يكون قد فقدها من جديد بتسرعه هذا. هو لم يحاول أن يعود لأنه يدرك من داخله أنها لا تريد. قالت له مرات عديدة "لا أطيقك لا أتحملك" إذًا ماذا ينتظر منها سوى أن ترفض. إن أي محاولة للعودة هي غباء منه لأنها قد تتسبب في فقدان كل الود الذي بينه وبين عائلتها، ودٌ جعله طوال تلك السنوات الماضية يرى طيفها في صغيرهما، وفي زياراته لعائلتها. كان يفضل أن تحتفظ هي بالصغير حتى يشتم عبقها فيه كل مرة يراه، ولكن يبدو أنه ضيع كل ذلك.

وعندما وصلوا ترجل هو مسرعًا ليفتح لها باب السيارة فسبقته. هدأ من حاله واحتضن الصغير ووعده بلقاء قريب، ألقى عليها التحية وطلب منها أن يصعد معهما ولكنها طلبت منه ألا يتعب نفسه، وأنه يستطيع أن يرحل. ركب سيارته وراقبهما حتى يختفيا فلم يفعلا وظلا واقفين. رآها تعود إليه قائلة في ود مثبتة عينيها في عينيه:

ـ ألديك خطط لي في أوروبا أم ستفكر في خطط؟

ـ ليس هناك سوى خطة واحدة.

ـ وما هي؟

قال في تردد وقلق وهو مندهش:

ـ نعود.

صمتا لبرهة وقالت:

ـ الأمر بيد أخي.

وذهبت مسرعة. ترجل هو من السيارة وأسرع خلفها، توجه إليها وسبقها ثم وقف مواجهًا لها:

ـ ستتحمليني؟

قالت والدموع في عينيها:

ـ كما تحملتني وأكثر .

واختفت من أمامه. وقف هو كالتمثال لا يصدق. كان يتذكر بعدها كيف حملته قدميه وركب سيارته، وكيف ضغط على المقود ودخل بيته ونام. لم يع بنفسه سوى اليوم التالي وهو بكمل ملابسه.

دخلت الغرفة. وجدت أشياء مبعثرة هنا وهناك، عندما رآها ابتسم. كان شاردًا وأفاق. وجدت في يديه الدفتر، أسرعت نحوه:

ـ ما هذا؟

قال وهو يرفع حاجبيه ويبتسم رافعًا إياه أمام وجهها:

ـ ألا تعرفينه؟!

ـ أعطني إياه.

قال وهو يضعه خلف ظهره:

ـ لا.

قالت في شبه رجاء:

ـ أعده إليّ. ما به أشياء بيني وبين صديقاتي، وهى محرجة لن تفيدك.

زام طويلًا ثم قال وهو يقلب صفحاته:

ـ دعينا نرى.

وقفت تكتم غيظها وهو يقلب الصفحات سريعًا وقال:

ـ إنه اعتراف.

ونظر إليها في ود. نظرت هي للأسفل فقال في امتنان:

ـ كان يكفي أن تشيري فقط بأحد أصابعك، كنت سآتي طائعًا.

نظرت إليه وعلى وجهها علامات السعادة:

ـ لا زلت كما أنت. لم تتغير. هل قرأته؟

ـ كل كلمة. كنت كأنني معك. أوَ تعرفين؟ مر أكثر من خمسة عشر عامًا على عودتنا، ولازلت أشعر أنني لم أعطك كل ما لدي بعد.

نظرت إليه في سعادة:

ـ لا تنس أنني بعد عودتنا عذبتك مرة أخرى بحمل وولادة مرة أخرى.

ـ وأنا عذبتك بقلة اهتمامي.

ـ لم تفعل.

ـ ...ولم تطلبي اهتمامًا.

ضحكت بصوت عالٍ وقالت:

ـ بالفعل أتيت من الخارج لأطلب منك شيئًا.

ـ ما هو؟

نظرت إلى الأعلى وهى تهز رأسها وكأنها تفكر في خيارات:

ـ أريد أن أذهب في رحلة إلى القمر!

نظر إليها وهو يعض على شفتيه وأجاب:

ـ بشرط أن تنظفي الغرفة.

نظرت حولها وقالت:

- لا، بالطبع لن أفعل. من أتلف شيئًا فعليه إصلاحه.
- إذًا لا تريدين القمر؟

نظرت إليه وكأنها تغيظه:

ـ لا أريده؛ فلدي قمران، ابني وابنتي.

ـ وأنا لدي ثلاثة أقمار.

ضحكت بصوت عال ولكنه عاود:

ـ وأيضًا سترتبين الغرفة.

ـ لا.

ـ ستفعلين.

ـ لا.

قطب جبينه ولم يرد عليها وشرع بالفعل في ترتيب الغرفة فأسرعت تمسك بيده ثم قالت وهي تبتسم:

ـ أمزح معك يا عزيزي، سأرتبها أنا بالطبع!

انتهى

كل الشكر لهؤلاء الذين يتفهمون صمتنا، وعزلتنا، ولا يسيئون الظن أبدًا.

كل الشكر **لعصير الكتب** جميعًا، وشكر خاص على هذه المنصة التي تتيح للجميع الظهور.

أرجو أن يكون العمل خفيف على من قرأه وأعجبه، ومن لم يعجبه فسامحونا.

.....

ظلت مبتسمة في شرود لوقتٍ طويل بعد
انتهاء المكالمة. تذكرت أيامً طفولته
الأولى. ظلت تتذكرهما ولكن مهلًا .. يبدو
أنها خشيت أن تضيع الكلمات فأمسكت
بقلمها والورقة وسطرت
أكتب إليك
عصير الكتب